القسم الرابع

شرقي الجزيرة العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

١٢

حارس الخليج العربي

كان الخليج العربي فيما مضى مشهوراً بقراصنته القساة ، وتجار الرقيق ولآلىء الشرق النادرة فيما بعد . أما اليوم فهو ذائع الصيت لكثرة ما يحوي من بترول . ان بترول الشرق الاوسط يأتي في أكثره من الآبار الواقعة جنوبي العراق وايران ، اي من حقول الكويت والاحساء التي لا مثيل لها . وأكثر من نصف احتياطي العالم موجود في جوف قوس عجيب تغسل اطرافه مياه الخليج التي تمخرها الناقلات القادمة لحمل البترول من موانىء الفاو ، وبندر شاهبور ، وميناء الاحمدي ، وقبل الوصول الى هذه الموانىء تمر السفن المحملة بالمياه المالحة على طول الف وستمائة كيلومتر أمام شواطىء عمان وتعبر مضيق هرمز عند رأس ماسندام ، فتتعرف على آخر صخرة من صخور سلطان مسقط مع تعرفها الى البواب الثابت للخليج العربي .

تشكل سلطنة مسقط وعمان التي تقع بين صحراء الربع الخالي والبحر العربي الطرف المستدير لهذه الحزمة العريضة التي تؤلفها الجزيرة

العربية ، وكما هي الحال بالنسبة لحضرموت ، تدفع صعوبة المواصلات على الصحراء الداخلية الكبرى ، السلطنة الى التطلع بالطبع نحو العالم الهندي ، ولم يكن الانجليز قد قدروا بعد اهميتها الستراتيجية العظيمة ، عندما ادخلوها في منطقة نفوذهم في اواخر القرن الثامن عشر . واقامتهم في مسقط عام ١٨٠٠ كانت نقطة الانطلاق للمركز الممتاز الذي حصلت عليه بريطانيا خلال القرن التاسع عشر وحافظت عليه خلال النصف الاول من القرن العشرين ، بعد معركة طويلة للقضاء على كل محاولة لبسط النفوذ في تلك المنطقة قد تلجأ اليها الدول الاخرى ، وخاصة فرنسا .

واليوم أيضاً ، بعد الخروج من الهند ، وبعد النزاع الايراني ، وعلى الرغم من انحسار نفوذها في الشرق الاوسط ، وارتفاع اسهم النفوذ الاميركي بسرعة ، ما زالت بريطانيا تبدو دولة رئيسية كبرى في المنطقة التي تشرف سلطنة مسقط وعمان على مدخلها . وقد رأينا ذلك ايضاً خلال صيف سنة ١٩٥٧ عندما سارعت القوات البريطانية الجوية والبرية لنجدة السلطان ، ضد ثورة القبائل العمانية في الداخل .

وهذه السلطنة التي لا تُعرف لها حدود ثابتة وكيان سياسي فريد ، وتعتبر نظرياً مستقلة ، مع ان قواتها المسلحة تخضع لقيادة ضباط بريطانيين ، ووزير خارجيتها يدعى السيد « نيل ايتر » يساعده قنصل صاحبة الجلالة الخاضع لسلطة المقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج العربي . والاسم نفسه الذي يطلق على الدولة مبهم . فهو يجمع بين اسم العاصمة التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف ، وداخل البلاد الذي تزيد مساحتها على مائتي الف كيلو متر مربع . وعدم الدقة في حدودها وصل الى درجة انه ذهبت بعض المصادر الى القول بأن مساحة السلطنة هي ما بين مائتين الى مائتين وعشرين الف كيلو متر مربع . بينما تؤكد شركة بترول العراق ، صاحبة الامتياز للتنقيب عن البترول هناك ،

بأن هذه المساحة لا تقل عن ثلاثمائة وخمسين الف كيلومتر مربع .

وقد احتاجت سلطة السلطان مراراً الى مساندة البريطانيين كي تفرض نفسها في الداخل في جبال عمان التي تسكنها قبائل بالغة القسوة، والمقاطعة الواقعة الى الغرب من السلطنة ضفار ، تجاور مهره احدى اقسام محمية عدن الشرقية مدينتها الرئيسية « صلالة » تضم قصر السلطان الصيفي ، ويتكون الداخـــل من تلال مخضرة حيث ينبت شجر البخور بصورة طبيعية منذ اقدم عصور التاريخ ، وشبه جزيرة « ماسندام » على مدخل الخليج العربي هي نوع من المراكز المتقدمة التي لا تتصل مباشرة بالسلطنة ، وكذلك في حالة خوضر ، التي هي جيب اخير يبلغ مساحته ثمانمائة كيلومتر مربع ويقوم على الجهة الثانية من خليج عمان في الباكستان (بلوخستان) .

ويجمع بين مختلف اجزاء السلطنة خضوعها لسيادة مسقط . وهذه البلدة هي افضل ميناء طبيعي في المنطقة تقع في خليج صغير يشبه الى حد كبير خلجان اسكندينافيا الملقبة بالفيورد. والى مسافة بضعة كيلومترات الى الشمال تقع قرية مطره . وهي اهم مركز تجاري في السلطنة ، بين هذه المدن وشاطىء القراصنة، سهل الباطنة الساحلي ينشر الى ما لا نهاية اشجار النخيل ، انه المنطقة الخصبة الوحيدة على شاطىء زائد الحرارة وذي مناخ قاس على الاوروبيين، ومسقط ومطره مشهورتان بأنهما اكثر واشد مدن الجزيرة العربية حرارة ، والمقيمون الانجليز القلائل فيهما لا ينفكون يرددون ما قاله ذاك الزائر الايراني لها في القرن الخامس عشر إذ قال : « لقد كانت حرارة مرتفعة الى درجة انها تقلي النخاع داخل العظـــام وتذيب السيف في قرابه كالشمع ، وتحول قبضة الخنجر الى فحم ، وفي السهل يبلغ الصيد سهولة لا توصف لأن الصحراء امتلأت بالغزلان المشوية على الطبيعة » ان نسبة الامطار قليلة لأن الجبل الاخضر يحتكر الغيوم الثقيلة ليوزع امطارها على ساكنيه . وقمم الجبل التي يزيد

ارتفاعها على ثلاثة آلاف متر تكتسي احياناً بثوب الثلج الابيض . وفي الداخل، في الناحية الاخرى من الجبل تسير المنحدرات الجبلية في الانخفاض شيئاً فشيئاً نحو رمال الصحراء لتذوب نهائياً في صحراء الربع الخالي.

انهم قليلون الاوروبيون الذين زاروا منطقة الجبل الاخضر المنيعة ، وما من واحد منهم استطاع ان يعرفها على حقيقتها . ويعد سكانها ، وهم من العرب حـوالي خمسمائة الف نسمة يعملون في الزراعة ورعاية المواشي ، ويعتنقون المذهب الخارجي في الاسلام ويخضعون لسلطة امام خاص بهم . اما التركيب الاجتماعي فهو حتماً التنظيم القبلي، لأن الوصف الذي اعطاه « جيمس موريس » الذي رافق سلطان مسقط في جولته في السلطنة عام ١٩٥٥ يشير الى وجود عدد من المشايخ نزلوا من الجبل ليعربوا عن ولائهم للسلطان .

وفي المنطقة الساحلية على خليج عمان ، السكان خليط عجيب من العرب والهنود الباكستانيين والايرانيين والافريقيين .

هذا في المدن الساحلية ، اما خارجها ، إن في ضفار ، وإن في باطنة فالعرب يشكلون اكثرية ساحقـة ، ومجموع عدد سكان السلطنة يجب ان يكون في حدود ستمائة الف نسمة .

البؤس وجنون البترول

يعيش سكان الساحل العماني ، كما كان اباؤهم واجدادهم ، يعيشون في امل الانتظار للحصول على صفقة رابحة ، اذ ينتظرون نبأ اكتشاف البترول في جوف اراضيهم . وهذا السراب الدائم في الوقت الحاضر يساعدهم على تحمل اقسى درجات البؤس والشقاء .

تلك هي حال البقاع الجافة الفقيرة ، اما المنـــاطق التي تكثر فيها الامطار وتصلح للزراعة في ضفار ، والجبل الاخضر ، والباطنة ، في

السهل فهي اسعد حالاً وتعطي زراعة النخيل انواعاً مختلفة من التمر . وفي الواحات تتيح زراعة مختلف انواع الخضر والاثمار ، وتشكل الخضر مع التمور والحبوب المنتوجات الرئيسية في البلاد . وفي الداخل كما في اليمن ، تختلف الزراعـات باختلاف درجة الارتفاع في جلول مروية حسب وسائل موروثة عن الجدود ، ويعمل الحضريون كلهم في الزراعة على منحدرات الجبل الاخضر ، او في الاودية التي لا تصيبها رياح الصحراء المخربة ، من هذه المنطقة يُصدَّر عنب مسقط التي ادخلت اليها الكرمة على ايدي القادمين الجدد البرتغاليين في القرن السادس عشر.

وعلى الشاطىء تحوَّل السكان الذين ينحدرون من اشرس قراصنة عرفتهم البحـار الى صيادي سمك مسالمين وغطاسي لؤلؤ جلودين ، ولكنهم لا يستهينون بالتهريب وتجارة الاسلحة اذا واتت الفرصة وذلك على الرغم من المراقبة الشديدة التي يفرضها خفر السواحل البريطانيون .

والشاطىء الكثير الاسماك يدعو الكثيرين من ابناء السواحل الى البحث في صيد الاسماك عن موارد العيش ، وفصل الشتاء الذي يبرد ميـاه المحيط ويدفع نحو الشاطىء الدافئة الاسماك الصردة هو افضل موسم لصيد سمك السردين على طول الشاطىء من مضيق باب المندب حتى مضيق هرمز ، ويصطاد السكان كذلك سمك القرش الذي يجفف ويملح ثم يصدر الى الصين ، وحسب انواعها تصدر الاسماك الاخرى الى الخارج او تباع في الاسواق الداخلية .

وبسبب التجارة الخارجية المتجهة تقليدياً منذ القدم نحو الهند والشرق الاقصى اختار سلطان مسقط الروبية الهندية عملة رسمية في سلطنته، وكما هي الحال في محمية عدن واليمن يفضل سكان الداخل « الثالر » الفضي البراق خاصة ماري تيريز امبراطورة النمسا . وتصدر عمان التمور والخضار والاسماك المجففة لتستورد الارز والمنسوجات القطنية والقمح والبن .

وخط بومباي ـ البصرة للشركة الانجليزية ـ الهندية للملاحة البخارية

يمر في مسقط التي يعبرها ايضاً خط ف. ستريك وشركة الهافر الجديدة للملاحة . وتقوم المراكب الوطنية بنشاط دائم بين مختلف موانيء الخليج والباكستان ، وتغامر في الابحار حتى زنجبار مجتازة المحيط الهندي كبحارة مسقط القدماء الذين دفعتهم جرأتهم النادرة الى منافسة البرتغال على امتلاك مستعمرات في افريقيا الشرقية .

وخلال الحرب العالمية الثانية بنى الحلفاء مطارات في صلاله ، وفي جزيرة مزراح على شاطىء عمان مقابل عائدات سنوية بلغت ستة آلاف جنيه استرليني ، وهناك مطار آخر قرب مطرة للطيران المدني ولكن لا يمكن استخدامه الا بعد علم مسبق بثماني واربعين ساعة على الاقل ، والحصول على موافقة السلطان . ولا يوجد في السلطنة حتى اليوم طريق معبدة تستحق ان يطلق عليها هذا الاسم ، اذ ما استثنينا سبعة او ثمانية كيلومترات تربط مسقط بمطره . والرحلة التاريخية التي قام بها السلطان سعيد بن تيمور في انحاء سلطنته في كانون الاول سنة ١٩٥٥ كانت اول اتصال بري بين ضفار ومسقط ، ثم طريق اللف حول السلسلة الجبلية من الشمال ، ومنذ ذلك الحين والتنقيب عن البترول يفرض على الشركات ذوات الامتياز شق طرقات وتعبيدها بين الساحل والداخل في ضفار وعمان .

الامتيازات والتنافس

حتى عام ١٩٥٣ كانت شركة فرعية تابعة لفريق شركة بترول العراق هي وحدها صاحبة الامتياز للتنقيب عن البترول في السلطنة وتدعى شركة التطوير البترولي المحدودة (عمان) ولم تتوصل هذه الشركة الى نتيجة ايجابية في تنقيباتها فتنازلت عن امتيازها في ضفار وفي ظروف غامضة ، الى السيد واندل فيليبس الذي باعه بدوره الى سيتي اويل

سرفيس كومباني ، وبدا ان هذا التحويل في ملكية الامتياز كان له آثاره الفعالة في توسيع نطاق التنقيب .

وبعد تنقيب ، وحفر دام عـــدة سنوات ، اعلنت سيتي سرفيس خلال عام ١٩٥٧ نبأ نجاحها في الاهتداء الى كميات من مخزون البترول صالحة للاستثمار التجاري . والنفوذ الى داخل ضفار حمل الشركة على شق طريق تتيح لها ذلك ، واذا ما قدر التثبت من صحة صلاح هذا البترول للاستثمار التجاري ، فإن معنى ذلك ان النمو السريع سيصيب هذه المنطقة . وهذا الامر يجب ان يعزي السلطان سعيد بن تيمور على فشله في عمان .

لقد ساد الاعتقاد فيما مضى ان منطقة عمان الجبلية الثائرة هي التي تحوي اكبر حظ في العثور على البترول . وهكذا هم البشر، لا يتطلعون الا ما هو صعب المنال . والتنقيب الذي جرى في ظروف مضنية بسبب عدم الاستقرار والخوف ادى في كانون الاول سنة ١٩٥٥ الى العملية الصاعقة التي انتهت بعد حملة خاطفة مولتها الشركة البريطانية المنقبة عن البترول بعزل امام عمان زعيم القبائل الثائرة . والى الشمال من عمـــان ايضاً تعرضت واحة البريمي هي الاخرى الى الاحتلال على ايدي قوات مسقطية يقودها بريطانيون ، وما ان خلا المكان حتى نقل البريطانيون جواً كل ادوات وآلات الحفر الى فهـــود ، بينما كان العمال من ناحية ثانية يشقون طريقاً برية لربط الساحل بحقول البترول ، واشارت التنقيبـــات الاولية في الطبيعة وطبقات الارض التي عينت المكان المختار لاجراء الحفر واخراج البترول الى دلائل مشجعة وتبشر بنتائج حسنة وسريعة .

وفي الوقت الذي كانت السلطات البريطانية من وراء سلطان مسقط تضع يدها على سلطنة عمان وتعزل امامها الثائر ، كثر الحديث عن فهود وما تبعثه من آمال في مخزون بترولي عظيم . وبعد مضي ثمانية عشر

شهراً من ذلك للتاريخ دلت المعلومات المستقاة من مقر شركة بترول العراق ان هذه الآمال لم تكن في موضعها .

في شهر حزيران سنة ١٩٥٧ حفر بئران عميقان ، ووصل الحفر الى عمق اثني عشر الف قدم ، دون ان يصل الى الجيوب المنتجة ، حتى ولا الى ما يشير الى دلائل مشجعة . وكان الفنيون يستعدون لنقل آلات الحفر عندما أدت عودة الامـــام غالب في شهر تموز سنة ١٩٥٧ الى اندلاع نار الثورة في عمان . وفي نهاية السنة كانت كل الآلات قد نُقلت الى الشمال . وبالطبع لا يعني عدم نجاح عمليات الحفر هذه انه لا يوجد ابداً كميات من البترول في منطقة فهود . وفضلاً عن ذلك ، ما زال البحث مستمراً بحدوه بعض الامل . وقد بدأ صبر السلطان ورعاياه ينفد من طيلة الانتظار ، بينما الامارات الاخرى تثري بسرعة هائلة بفضل اكتشاف البترول فيها . وقـــد وصل جنون البترول الى أكثر مناطق الجزيرة العربية غموضاً . وبفضله أصبح الامراء البدو مستعدين للتنازع في سبيل شبر من الارض ، كما كان يفعل الفلاحون الاوربيون من قبل : والنزاع هنا أقوى وأعنف .

امبراطورية سلاطين مسقط المندثرة

يعني اكتشاف البترول ، بالنسبة للسيد سعيد بن تيمور سلطان مسقط الذي ورث عام ١٩٣٢ امبراطورية منهارة يتأكلها الفقر ، بعث البلاد من جديد . وسعيد هذا رجل صامت صبور ، يهتم بتطوير سلطنته أشد الاهتمام . كثير الاحلام والمشروعات يدونها في مفكرة يدسها في جيبه : وليس من أحد يعلم حالياً مدى عائداته التي يجب ان تكون متواضعة جداً لأنها تقوم على المكوس الجمركية والايجار السنوي الذي تدفعه له

الشركات البترولية صاحبة الامتياز .

ان سلطان مسقط كثير الغدوات والتزحات ، وهو يمشي دوماً ساهماً إذ يأمـــل ، عندما ينفجر البترول في السلطنة ، ان يبني سداً هنا ، وطريقاً هناك ، ومدرسة في هذا المكان ، ومستشفى في ذاك . وعُمان العجيبة الغامضة المنسية ستعود من جديد بلداً كبيراً فائق الاهمية .

قبل احتلال مسقط على يد « البوكرك الكبير » كان تاريخ عُمان مجهولاً جهلاً تاماً تقريباً لدى الاوروبيين . ويذكرنا اليوم حصن برتغالي ، ما زال قائماً هناك ، ان مسقط قـــد جوت مدة قرن ونصف القرن مستودعاً مهماً يشرف على مجمل التجارة في كل مناطق الخليج العربي ، واستخدمت كقاعدة للانطلاق الى المناطق الداخلية عند الفاتحين البرتغاليين .

وحوالي عام ١٦٥٠ ثار العمانيون العرب وطردوا المحتلين الاجانب من بلادهم . وشيئاً فشيئاً ، حتى عام ١٧٣٠ ، كان على العمانيين ان يبسطوا سيادتهم على جميع المستعمرات البرتغالية السابقة في شرقي افريقيا : موغاديشو ، مومباسا ، وجزر مافيا وزنجبار . وبعـــد اجتياح ايراني موقت دام من سنة ١٧٤١ الى سنة ١٧٤٣ قدمت العائلة المالكة الحالية من الجبال لتؤسس سلطنة مسقط .

وفي نهاية القرن الثامن عشر احتل السيد سلطان ، جدُّ العاهل الحالي ، مسقط والمنطقة الساحلية . واجتاز الخليج ليحتل خوطر ، كشم ، شهبار ، وهرمز ، وبقي الرئيس الروحي سيد الداخل . ولكن السيد سلطان بسط سيادته على ضفتي مضيق هرمز ، وعلى الجزر ، وامتدت امبراطوريته حتى افريقيا .

وكانت تلك الحقبة تشهد تنافساً عنيفاً على بسط النفوذ في منطقـــة الخليج وغيرها من المناطق ، بين الفرنسيين والبريطانيين ، وكان نابليون الاول يحلم بانتزاع امبراطورية الهند من الانجليز ، فأرسل « الكابورال الصغير » رسله الى مسقط ؛ غير ان الانجليز كانوا أسرع منه ، فنجحوا

عـــام ١٧٩٧ في الحصول من السلطان على عقـــد أول معاهدة صداقة معهم ، موجهة بصورة خاصة ضد الاطماع النابليونية ، ومن ثم ضد الهولنديين النشيطين .

وفي سنة ١٨٠٠ سمح لأول مُقيم سياسي بريطاني ان يقيم في مسقط . عندئذ نظم البريطانيون حملتهم ضد القرصنة التي تهدد مصالح شركة الهند الشرقية (البريطانية) وأمنوا منذ ذلك الوقت الحراسة الدولية في الخليج العربي بالاشتراك مع حليفهم المحلي . والمصلحة الواضحة للبريطانيين كانت ضمان حرية المرور للسفن البريطانية في مضيق هرمز ، لأن الدخول الى الخليـــج العربي معناه الولوج الى منطقة الشرق الاوسط من الباب الخلفي السري . وفي الوقت نفسه منعوا قيام أية دولة أخرى يمكن ان تصبح في المستقبل خطراً على مواصلاتهم البحرية والبرية بين انحـــاء الامبراطورية البريطانية .

وفي ظـــل السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٤ — ١٨٥٦) عرفت امبراطورية سلاطين مسقط البحرية أوج مجدها وازدهارها ، اذ كانت المراكب العمانية الكبرى تربط باستمرار بين السلطنة وممتلكاتها في افريقيا الشرقية . وبدت الصداقة مع بريطانيا مثمرة لأن الازدهار لوّن وجوه التجار وزادها بشراً .

وفي سنة ١٨٣٢ خبا نجم مسقط فترة من الوقت ، بعـــد ان قرر سلطانها نقل عاصمته الى افريقيا . وفي زنجبار ، حيث أقام ، بقي السلطان يبسط سلطانه على امبراطوريته حتى مماته . وبعد سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦ قسمت الامبراطورية الى قسمين بين ابنيـــه ، فاحتفظ احدهما بالممتلكات الافريقية ، بينما أخذ جد السلطان الحالي القسم العربي منها . لقد تطورت الحال ولم يبق ثابتاً سوى الحماية البريطانية ، وكتب لزنجبار ان تقع أكثر من مسقط في قبضة البريطانيين .

هذا وقد جذب المركز الستراتيجي الفريد للسلطنة العربية الى بلاطها

مبعوثي مختلف الدول . ومنذ عهد السلطان سعيد بن سلطان قويت العلاقات الخارجية واتسع نطاقها . وقد زاد هذا الميل فيما بعد .

ففي سنة ١٨٣٣ وقع ميثاق صداقة ، لا يزال ساري المفعول بين السلطنة والولايات المتحدة الاميركية . وبريطانيا من جهتهـا وقعت مع السلطان ميثاقاً جديداً للتجارة والصداقة عام ١٨٣٩ ، وفرنسا دخلت في علاقات تعاهدية مع مسقط عام ١٨٤١ فوقعت مع السلطان ميثاق صداقة عام ١٨٤٤ . أما هولندا فقد عقدت مع مسقط معاهدة تجارية عام١٨٧١

وقد تنافس الخصمان الكبيران في المنطقة ، فرنسا وانجلترة ، وعاكس كل منهما الآخر ، خلال القسم الاكبر من القرن التاسع عشر . وبفضل هذا التنافس الشديد بين الدولتين الكبيرتين استطاع السلطان ان يحتفظ « باستقلاله » . وفي سنة ١٨٦٢ قبلت فرنسا بالاتفاق مع بريطانيا ان تضمن استقلال وحدود سلطنة مسقط . ولازعاج البريطانيين الذين أعلنوها حرباً شعواء على القراصنة والمهربين سمحت السلطات الفرنسية القنصلية لأكثر من مركب ان ينجو من ملاحقة البحرية الملكية ، برفع العـلم الفرنسي المثلث الألوان . ولكن فرنسا اضطرت ان تقلع عن هذا العمل إزاء احتجاجات بريطانيا الشديدة وشكاويها ، وبعد توقيع الاتفاق الحبي بين الدولتين المتنافستين .

التفوق البريطاني

لدى نشوب الحرب العالمية الاولى ، وعلى الرغم من ان معاهـدة الصداقة الفرنسية – المسقطية كانت ساريـة المفعول ، أقفلت قنصلية فرنسا في مسقط . ومن جراء ذلك أصبح التفوق البريطاني مطلقاً . ومع ذلك احتفظت بريطانيا شكلاً بمظاهر الاستقلال الخارجية ، ودعمت نظام

السلطنة الاساسي الذي اعترف به في محكمة لاهاي الدولية عند دراسة مشكلة مراكب مسقط عام ١٩٠٥ ، وأعطت لندن لممثلها هناك لقب قنصل ، مع انه كباقي المندوبين السياسيين البريطانيين في سائر امارات الخليج يخضع لسلطة المقيم السياسي البريطاني للخليج العربي المقيم في البحرين. وهكذا وضعت بريطانيا علاقاتهـــا مع السلطنة في اطار قانوني يحفظ المظاهر .

وفي الخامس من شباط سنة ١٩٣٩ جدد ميثاق الصداقة والتجارة والملاحة الذي ضمن حقوقاً خاصة للرعايا البريطانيين المعقود في آذار سنة ١٨٩١ ، وكان السلطان قد اصدر منذ العشرين من كانون الثاني سنة ١٩٢٣ مذكرة يعد فيها بعدم اعطاء أي امتياز للتنقيب عن الثروات قبل أخذ رأي الممثل البريطاني في مسقط .

وفي العشرين من كانون الاول سنة ١٩٥١ وقع ميثاق جديد للصداقة والتجارة والمـــلاحة بين السلطان السيد سعيد بن تيمور والمقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج العربي باسم صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا ، واحتفظت بريطانيا بحقوقهـــا القانونية المميزة لمواطنيها غير المسلمين في المملكة المتحدة ومستعمراتها : وكانت هذه الامور قد ورد ذكرها في الرسائل المتبادلة الملحقة بالميثاق .

وعلى العموم اذا كان مركز سلطنة مسقط يمكن اعتباره من الوجهة القانونية الدولية سلمياً ، فهو عملياً يجعل من مسقط محمية بريطانية تجاوباً مع التعريف المقبول عادة للكيانات السياسية ، اذ ان الشؤون الخارجية والدفاع والمالية في السلطنة كلها تحت اشراف الانجليز . وبريطانيا هي التي تمثل السلطان في النزاع على واحة البريمي . كما ان جنودها وقواتها الجوية اضطرت الى التدخل في تموز وآب سنة ١٩٥٧ لتدعيم سلطة سعيد ابن تيمور المتزعزعة في عمان بعد اندلاع الثورة ضده هناك .

القوى الخفية في عمان الثائرة

لقد كشفت ثورة عمـــان في صيف عام ١٩٥٧ عن تعقد الاوضاع السياسية في السلطنة . والواقـــع حتى عام ١٩٥٥ ان السيادة الفعلية لسلطان مسقط لم تكن تتخطى المنطقة الساحلية من عمان ، اما الداخل الجبلي الذي تسكنه قبـــائل عنيدة عاصية ، متأخرة ، فكان خاضعاً للامام العبيدي المقيم في نزوة ، وهذا لا يعترف الا بتبعية وهمية اسمية لسلطان مسقط الذي يستطيع ان يقطع عليه خطوط مواصلاته الحيوية مع الخارج .

وفي عام ١٩١٥ عندما ثارت قبائل الداخل ، لم يستطع سلطان مسقط اخماد ثورتها الا بمساعدة القوات البريطانية الهندية ، وبقيت الثورة تزمجر حتى توقيع معاهدة « السيب » المشهورة في عام ١٩٢٠ بين سلطان مسقط وامام عمـــان التي احتفظت لقبائل الداخل بحقهم في نوع من الاستقلال الذاتي . وهذا النص العجيب الغريب لم يعثر له على اثر في اعقاب الخلاف القانوني الذي نتج عن التدخل البريطاني المسلح في ثورة عمان الى جانب سلطان مسقط ، والجدير بالذكر ان امام عمان كان قد اعترف به سيداً لامامة عمان المستقلة عام ١٩٢٨ من قبل حكومة الهند التي كانت تمثل بريطانيا في منطقة الخليج العربي آنذاك .

لم يحاول سعيد بن تيمور الذي خلف والده عام ١٩٣٢ ان يؤكد مطلقاً سيادته في عمان حتى ذاك اليوم الذي وجدت فيه العربية السعودية ومصر مفاوضاً طيعاً في الامام غالب ، وربما اكثر في اخيه طالب ، لقد اشار السعوديون الذين لم يتخلوا مطلقاً عن حلمهم في توحيد الجزيرة العربية كلها ، والقوميون العرب الذين عزموا على ان يقضوا نهائيـــاً على الاستعمار البريطاني اشار هؤلاء على امام نزوة ان يعلن انفصاله عن مسقط

الواقعة في قبضة البريطانيين لا سيما بعد ان اصمت آذانها عن سماع نداءات القومية العربية الداعية للوحدة والتحرر . والتنقيب عن البترول الذي كان ينشط في الجنوب يمكن ان يكون له علاقة بذلك ، وهكذا اعدت عملية سرية – بمساعدة الشركة البترولية – حملت قوات مسقط التي يقودها الكولونيل واترفيلد وضباطه البريطانيون الى اسوار نزوة في صبيحة الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٩٥٥ ، فعزل الامام وفر اخوه طالب الى الخارج .

ولدى اذاعة النبأ الخطير ترك سعيد بن تيمور ضفار حيث كان ينتظر على احر من الجمر نتائج الحملة ليقوم بجولة طنانة في انحاء سلطنته التي يتجول فيها لاول مرة غير انه في جولته هذه تحاشى ان يتوغل في الجبل.وفيما عدا زيارته لنزوة دار السلطان حول الجبل الاخضر الى الشمال ليعود الى عاصمته الوفية الموالية على الساحل .

هذه هي الجولة التي استطاع السيد جيمس موريس مراسل التايمز ان يرافق السلطان فيها ويصف مشاهداته . وفي كل مراحل جولته هذه كان السلطان يتلقى عهود الولاء من مختلف شيوخ القبائل والقرى . وقبل ان يعود الى العاصمة مسقط ، توقف سعيد بن تيمور في البريمي حيث قابل الشيخ شخبوط بن سلطان ابو ظبي الذي يقاسمه السيادة على واحة البريمي في جنوبي شرقي الجزيرة العربية ، وفي الطريق زار المنقبين عن البترول جماعة « السيتي سرفيس » في ضفار ، وجماعة « البتروليوم دفلوبمانت – عمان » في فهود . وفي كل مكان كان السلطان يسجل ملحوظاته في مفكرته الخالدة . وبعد عودته الى قصره المتواضع ، لم يكن احد يعلم مغزى الالغاز التي كانت تخبئها علائم التعب البادية عليه .

واذا كان السلطان يعتقد ان كل شيء ما زال في بدايته ، فهو على حق . وقبل بضعة اسابيع كانت قوات شاطىء القراصنة تحت قيادة

ضباطها البريطانيين ، قد طردت خارجاً القوات السعودية . وهكذا تلقي نزاع البريمي حلاً قاسياً موقتاً غير منتظر .

ان انتزاع السلطة هكذا من يد الامام غالب الرئيس الروحي المنتخب انتخاباً شرعياً وحليف آل سعود ، كان اكثر مما يستطيع تحمله سيد الرياض ، والحقيقة التي زادتها الايام ثبوتاً ، ان هذه الحركات كلها في هذه المنطقة المنسية ليس لها من دافع سوى وجود البترول . وبمجرد الاشارة الى ذلك اشارة عابرة تلقى مراسل التايمز تعنيفاً شديداً من قبل السلطان . ولكن كان يجب ان نعلم اشياء اكثر عن ذلك . وعلى كل حال فإن مطامح سعود والارامكو من جهة ، تقابلها اطماع سعيد بن تيمور وشخبوط بن سلطان وشركة بترول العراق من جهة ثانية .

اثر احتلال نزوة قصد الامام طالب آل سعود ، فسلّحوه . وعاد طالب في تموز سنة ١٩٥٧ على رأس بضع مئات من انصاره ليُثير عُمان ضد سلطان مسقط . وكان ان اشتركت الطائرات المقاتلة لسلاح الجو الملكي البريطاني الموجودة في قواعد عدن والشارقة والبحرين ومشاة الجبال الايكوسيين وقوات مسقط ، ومشايخ سلطنات شاطىء القراصنة ، كل هؤلاء اشتركوا في محاولة القضاء على الثورة العمانية .

وجميع القوات البريطانية في منطقة الشرق الاوسط انذرت بالبقاء على اهبة الاستعداد حذرة لمدة عدة اسابيع . واستطاعت الدعاوة الموجهة بحنكة من القاهرة ان تُعطي القضية اهمية وصدى دوليين . لقد فقد البريطانيون برودتهم ومتانة اعصابهم . وكانت خير غذاء للدعاوة ضدهم لصالح الثوار . لقد فشل طالب وغالب في الوقت الحاضر . ولكنهما نجوا من قبضة البريطانيين . وزادت بريطانيا قواتها في مختلف قواعدها العسكرية في الشرق الاوسط . في حين ما زال سلطان مسقط يتساءل عما سيفاجئه به اعداؤه في الجولة القادمة . انه الآن يسيطر على نزوة

ومبدئياً على عُمان ، كما يسيطر على البريمي مع جاره شيخ ابي ظبي ؛ وبمركزه الستراتيجي يشرف على مدخل الخليج العربي ويمكنه ان يعدّ بلهفة وشوق ناقلات البترول التي تمخر عباب اليم امام شواطئه . ومع قليل من الحظ يأمل سعيد بن تيمور ان يرى هذه الناقلات تحمل بترول مسقط ان شاء الله .

obeikandl.com

١٣

البترول بدون حدود

اذا عبر المرء سلطنة مسقط وعمان دخل في العالم المقفل الغامض ، عالم الخليج العربي حيث الدسائس والمؤامرات والمناورات البترولية العنيفة ، والنزاعات والخلافات على الحدود بين المشايخ ، والمصالح المتضاربة للدول الكبرى المتحالفة في الظاهر ، عن طريق شركاتها البترولية الوطنية . واذا ما تركنا عمان متابعين سيرنا الى الشمال على شواطىء الخليج لا نصادف سوى امارات صغيرة تحت الحماية البريطانية ، تحافظ عليها بريطانيا بكل قواها لتبقيها خارج المملكة السعودية الجارة الكبرى من ناحية الغرب حيث تتحكم بالنفوذ البترولي الشركات الاميركية .

لقد كان سكان هذه الامارات رعاة لقطعان الماعز ، وقد اضحوا بعد سنوات من كبار الاغنياء بفضل الثروة التي حملها لهم الذهب الاسود ومثل الجيران الشماليين علمهم البترول انه من الممكن جمع ثروات طائلة بفضل مساحات صغيرة من الرمال لم يكن فيها اية فائدة لاصحابها من قبل . وكل هذه الثروة التي تنساب بشكل سيارات كاديلاك مكيفة

اء تشعل نار الحسد . والروائح الكريهة المنبعثة من السائل البترولي ، تُسكر عرب الخليج بكل تأكيد ، اكثر من الروائح العطرة المنبعثة من « البستان المعطر » رغم ما فيها من حلاوة وقوة مثيرة .

في هذا العالم الصغير الذي تعوّد على النزاعات العائلية والقبلية من اجل الحكم ، وعلى الاحتلال الموقت العابر ، وتغيير السيادات العملية في هذا العالم ، لم تكن الحدود يوماً موضع تعريف دقيق ، وليس ذلك ناجماً عن ان القبائل البدوية والزعماء الذين تحدروا عنها يجهلون معنى الحدود الأرضية ، بل لأن كلمة « حدود » العربية ليس لها نفس المعنى الدقيق الذي نعرفه للكلمات المقابلة للغات الاوروبية . والمفهوم القانوني المعين للحدود المرسومة بوضوح على المصورات الجغرافية ، والمرتبط بحقوق السيادة المعينة التي يتفهمها ، لم يأخذ هنا قيمة وأهمية الا بعد ان ثبت ان السائل العجيب الثمين يستطيع ان ينساب في جوف الارض دون وجل او خوف ، وكسب بضعة كيلومترات في منطقة الحدود قد يعني بالنسبة للزعماء العرب الثروة او العوز ، وبالنسبة للمستثمرين الاجانب بترول دولار — او بترول استرليني .

وفي العربية السعودية يشمل الامتياز الممنوح للارامكو بالطبع جميع الاراضي السعودية ، هذه الاراضي المجهولة الحدود من جهة صحراء الربع الخالي . وهي مساحات شاسعة خالية في الجزيرة العربية .

وفي الجنوب ، والجنوب الشرقي تنعم شركة امتيازات البترول في محميات عدن وشركة « سيتي سرفيس » في ضفار ، و « البتروليوم ديفلوبمانت » في عمان وشاطىء القراصنة ، تنعم كلها بامتيازات تنتهي ظرياً عند حدود هذه الاقطار ، مع العربية السعودية . ولكن هذه لحدود كلها لا وجود لها . واكتشاف البترول في شبوه وبيرثمود في ضفار وأبي ظبي لا يمكن ان يؤدي الى تحريك اطماع سيد الرياض

وأصدقائه الاميركيين . وفيما خلا ضفار ، مُنح في مساحة قدرها خمسمئة الى ستمائة الف كيلومتر مربع من الجزيرة العربية امتياز التنقيب عن البترول فيها الى شركات تابعة كلها الى شركة بترول العراق التي ترجح فيها كفة المصالح البريطانية .

حول الجانب الجنوبي من صحراء الربع الخالي في الجزيرة العربية تطلبت التنقيبات عن البترول من الشركات البريطانيـة والمستقلة شق طرقات عبر الصحراء في مناطق غير معروفة جيداً حيث « الحدود » السعودية يمكن ان تكون بكل سهولة على مئـة كيلو متر اكثر الى الشمال ، او خمسين كيلومتر الى الجنوب ، حسب الصورة التي يرسمها لها خلفاء ابن سعود . ولدى كل عمل من قبل البريطانيين كان القادمون من الشمال من الناحية الاخرى لمحيط الرمال الراكد منقبو الأرامكو يتقدمون بصورة لاشعورية نحو الجنوب باتجـاه منافسيهم . والوسائل الحديثة من طائرات عامودية ، جرارات خاصة ضخمة ، وبيوت متحركة مكيفة ، تساعد على الانتصار على المسافات الشاسعـة من الطرفين .

وكلما قلت المسافة الفاصلة بين المتنافسين ، ازداد خطر الاصطـدام والنزاع وامكانية ذلك ليست بعيدة ابـداً . وهنا ربما يكمن السبب الرئيسي الذي من أجله بقي البترول المكتشف في مناطق متنازع عليها دون استثمار حتى اليوم . وأحد هذه النزاعات الذي سبق له وانفجر علناً ، بالضبط بعد تقارب فريقي التنقيب التابعين لشركتين مختلفتين متنافستين من بعضهما البعض . وقضية البريمي المشهورة برهنت بتطوراتها على مدى اتساع شقي التنافس البريطاني – الاميركي في المنطقـة ، وأهمية واحة البريمي ناتجة ايضاً عن كون السيطرة عليها تساوي آلاف الكيلومترات المربعة المحيطة بها .

الأرامكو ضد شركة بترول العراق

النزاع على البريمي

قد يظن البعض ان كنز واحة البريمي هو البترول ، والواقع انه الماء النادر على حافة الربع الخالي . وفي قلب بلاد جفافها يبعث الحزن تحيي ينابيع البريمي عدة قرى تتجمع عندها جميع طرقات الجنوب الشرقي العربي . وتبعد القرى الساحلية عنها اكثر من مئة كيلو متر ، بينما اقرب قرية سعودية منها تبعد عنها بضع مئات من الكيلومترات . وهذه الواحة هي نقطة التقاء في الداخل الصحراوي بالنسبة لعمان ، ولشاطىء القراصنة معاً . وملكية هذه الواحة فقط تمكن وحدها تعيين الحدود التقريبية لسلطنة مسقط وعمان ومشيخة ابي ظبي ، والمملكة العربية السعودية . ونتيجة لذلك يُعين احتلالها عن طريق هؤلاء او اولئك عملياً حدود الامتيازات البترولية لكل من الشركات الاميركية والبريطانية .

والواحة هي ، في الحقيقة ، مجموعة من تسع قرى ، بيوتها من اللبن ، وينفصل بينها مساحات صحراوية متفاوتة الاتساع ، بريمي ، حماسة ، وسارة ، يطالب بها سلطان مسقط وعمان ، بينما يطالب شيخ ابي ظبي بالقيمة وهيلي ، والقطارة ، وموبتح ، والمطرد ، والعين ، والملك السعودي من جهته يطالب بالمنطقة كلها التي اعطتها قرية البريمي اسمها بموجب التعهدات البريطانية المعطاة الى شيخ ابي ظبي . وبناء لطلب سلطان مسقط تمثل بريطانيا مصالح الشيخ والسلطان ، هذه المصالح التي تتوافق مع مصالح شركة بترول العراق .

ان وضع الواحة الممتاز نسبياً في احدى المناطق الاكثر جفافاً في

الجزيرة العربية يجعل منها القسم الاكثر كثافة بالسكان ، فيما عدا الشواطىء ، وشمالي عمان ، وشاطىء القراصنة انها مركز طبيعي للزراعة والتبادل التجاري ، يتهافت عليها البدو الضاربون في ذلك القسم من الجزيرة العربية ، مهما كان نوع الكيان السياسي الذي يفرض عليها . والأثمار والخضار والحشائش والتمور المنتجة في قرى الواحة تستبدل هنا بالارز ، والبن والسكر ، والمنسوجات المنقولة الى الواحة من الساحل . وهنا ايضاً يقايض الرعاة البدو بعض منتوجات مواشيهم بالمواد المستوردة او المنتوجات الزراعية الحضرية . لقد كان لهذه المراكز التجارية أهمية بالغة ، في كل وقت ، لوجودها في مناطق صحراوية ، حيث تكتسب صفة العاصمة في دائرة يبلغ شعاعها مئات الكيلومترات . والقرية الرئيسية في الواحة ، البريمي ، تشكل مع « حماسة » مكان التجمع وتبادل السلع بالنسبة للبدو . وتأكيد وجود البترول الذي بات ثابتاً في جنوب شرقي الجزيرة العربية ، كان من شأنه مضاعفة الاهمية الستراتيجية والاقتصادية للواحة .

وتستند المطالبة السعودية بالواحة الى ان اسلاف الاسرة السعودية المالكة قد بسطوا سيادتهم على الواحة بين عام ١٨١٣ و ١٨٦٩ . وبصورة خاصة اثناء نمو الدولة الوهابية الاولى . وبعد زوال السلطة السعودية الوهابية عنها يظهر ان البريمي بقيت فترة من الزمن دون سيد معروف ، بوضوح ، وذلك كما هي الحال في القانون البحري بالنسبة الى البحر العميق في وسط بحر مقفل من كل الجهات . ثم عمد سلطان مسقط بصورة طبيعية الى ضم القرى التابعة لقبائل ترتحل الى عمان الشمالية الى سلطنته كما اعتبر شيخ ابي ظبي القرى الست التي ترتحل قبائلها الى اراضيه جزءاً من مشيخته . وليس من المستبعد مع ذلك ، ان يكون بعض البدو الذين تجتذبهم البريمي نفسها ممن يرتحلون في مناطق يرجع قسم منها على الاقل لسيادة السعودية ، غير ان معرفة ذلك متعذرة

لصعوبة تعيين النقطة التي تبدأ منها الاراضي السعودية .

وفي النزاع على البريمي ليس من نصوص يمكن الاعتماد عليهـا ، والمواقف نفسها التي يتخذها مختلف الفرقاء هي كل ما في ايدينا .

وقد برز النزاع لاول مرة عام ١٩٣٥ ، ثم أدى عام ١٩٣٧ الى أول تقويم للحدود دون ان تشمل المطالب السعودية المنطقة المتنازع عليها اليوم . وتقريباً في الوقت نفسه لكن في الطرف الآخر من المملكة ، في الشمال الغربي ، كان ابن سعود يعلن انه لن يتخلى عن منطقـة معان – العقبة التي الحقهـا البريطانيون بامارة شرقي الاردن ، وبعد الحرب ، وكان قد بدأ عهد البترول في الجزيرة العربية وتناست العربية السعودية حقوقها في منطقة معان – العقبة ، لتطالب بأراض جديدة في الجهة الجنوبية الشرقية من الجزيرة . وفي عام ١٩٤٩ اطلقت السعودية مطلباً جديداً ، يشمل هذه المرة الاراضي المحيطة بقرية البريمي ، وتدعي الحكومة السعودية ان موظفيها لم ينفكوا عملياً عن جمع الزكاة من قبائل الواحة . اما لندن فتقول ان علاقات الواحة التجارية وغيرها هي مع شاطىء القراصنة او عمان وليس مع المملكة السعودية علاقات فعلية وذلك رداً على المطالب الوهابية التوسعية .

النزاع المسلح والتحكيم

في اواسط عام ١٩٥٢ احتلت القوات السعوديـة بقيادة تركي بن عطيشان قرية حماسة . فما كان من بريطانيـا الا ان احتجت وأرفقت احتجاجها بأعمال تعسفية أرغمت تركي بن عطيشان على الانسحاب سنة ١٩٥٣ . ثم وقعت هدنة بين الفريقين خففت من حدة النزاع . وطالبت العربية السعودية ان يتقرر مصير الواحة باجراء استفتاء شعبي من قبل الاهلين ، بينما اقترحت بريطانيا من جانبها اجراء تحكيم دولي .

ومنذ ذلك الوقت والتنقيب عن البترول مستمر في المنطقة . وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٤ جاء اعلان اكتشاف البترول في ابي ظبي ليؤكد الصفة البترولية للنزاع . ولكن أهمية هذا الاكتشاف لم يفصح عنها حتى اليوم .

ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الخارجية البريطانية وحكومة الرياض ، بين كانون الثاني وتموز سنة ١٩٥٤ استقر الرأي على التحكيم في جدة . وتألفت على الأثر لجنة دولية قوامها سعودي وبريطاني وثلاثة حياديين مهمتها تعيين الحدود المشتركة بين العربية السعودية وابو ظبي في المنطقة التي طالبت بها العربية السعودية عام ١٩٤٩ وابي ظبي عام ١٩٥٢ ، وبالتالي معرفة السلطة التي يجب ان تتبع لها المنطقة الواقعة داخل دائرة البريمي ، التي يمر محيطها في نقطة التقاء خط العرض ٢٤ درجة و٢٥ دقيقة شمالاً بخط الطول ٥٥ درجة و٣٦ دقيقة شرقاً .

وقد اجتمعت لجنة التحكيم الدولية لأول مرة في نيس في الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٥ برئاسة القانوني البلجيكي المشهور شارل فيشر قاضي محكمة لاهاي الدولية سابقاً . وكانت اللجنة تضم عضواً كوبياً هو السيد دي دييغو ،وباكستانياً هو السيد محمود حسن ، كما ضمت الشيخ يوسف ياسين عن العربية السعودية والسير ريدر بولارد عن بريطانيا بوصفها ممثلة مسقط وابو ظبي . وبعد ان طلبت اللجنة من الفريقين المتنازعين الامتناع عن أي عمل في المنطقة موضع الخلاف ، فضت اللجنة ، بعد ان اتخذت قراراً بعقد مؤتمر التحكيم في جنيف موعد لاحق .

وعلى الرغم من ذلك القرار دخلت الرياض ولندن في معركة الكلام والمذكرات والبيانات فاتهمت لندن السعودية بالرشوة وتهريب الاسلحة ، وأجابت الرياض ان بريطانيا تجوع سكان الواحة بفرض الحصار عليهم . وما ان أعلنت الحكومة البريطانية ان القوات الوطنية بقيادة ضباط

بريطانيين تسعى جهدها لمنع تهريب الاسلحة والذهب المخصص للرشوة حتى ردت الحكومة السعودية مؤكدة بأن هذه الأموال انما هي تقليدية ، ورفعت شكواها الى الصليب الاحمر الدولي ومنظمة الصحة الدولية لأغاثة « حماسة » التي فرض عليها البريطانيون الحصار .

استحالة التحكيم

في هذا الجو الملبد بالغيوم افتتحت في جنيف في الثامن من ايلول سنة ١٩٥٥ دورة اللجنة الدولية للتحكيم : وسرعان ما اتضح ان الجو لم يكن مناسباً لفض الخلافات . وفي الحادي عشر من ايلول أعلن رجل القانون البريطاني المشهور السير هارتلي شوكروس المستشار القانوني الاول للوفد البريطاني أمام اللجنة ، بأن العربية السعودية لم تنفك عن خرق اتفاق التحكيم ومقررات نيس ، وهي ما زالت ترسل مبعوثيها محملين بالذهب الى البريمي لرشوة زعماء القبائل وادخال الاسلحة وقوات الشرطة الى الواحة ، وطلب الى اللجنة اعتبار اعمال كهذه مخالفة لمقررات وأوامر اللجنة الدواية ، هذه اللجنة التي عليها ان تؤمن احترام مقرراتها . وفضلاً عن ذلك تسرب الشك الى المستشارين البريطانيين في تجرد عضو اللجنة الباكستاني الذي طالت اقامته في مكة المكرمة الى درجة حملت على تأخير موعد بدء المناقشات . وسلامة نية السعودي ايضاً كانت موضع شك ، مما حمل الرئيس على ان يذكر بحفظ النظام .

وبعد بضعة ايام استقال من اللجنة السير ريدر بولارد ، العضو البريطاني ، مرفقاً استقالته بضجة كبرى ، بعد ان اتهم الحكومة السعودية بالافساد المنظم المتعمد المستمر في سعيها لتأمين سيادتها على المنطقة موضع الخلاف . وبعد قليل من الوقت قدم رئيس اللجنة شارل دي فيشر والعضو الكوبي دي ديهغو استقالتهما من اللجنة .

وعلى الأثر نشرت الخارجية البريطانية بياناً طويلاً يكشف تفاصيل الجلسات . ويقول هذا البيان ان العربية السعودية كانت قد دفعت مبالغ طائلة من المال لبعض زعماء القبائل لتكسبهم الى جانبها . وان الشيخ زيد وحده شقيق شيخ ابي ظبي قبض مبلغاً قـدره ثلاثون مليون جنيه استرليني من الحكومة السعودية ، وقـد شهد بذلك أمام المحكمة .

وعلى هـذا البيان ردت السفارة السعودية في لندن ببيان نشرته في التاسع من تشرين الاول ، كذبت فيه جملة وتفصيلاً ، الاتهامات البريطانية . كما أعلنت حكومة الرياض ان جلسات محكمة التحكيم كانت سرية ولا يجوز نشر ما جرى فيها . ولذلك لا تستطيع ان ترد بنداً بنداً على ما ادعاه الانجليز ، بل اكتفت بأن اتهمت بريطانيا بأنها انسحبت من المحكمة في الوقت الذي ثبت لديها فيه ان القرار لم يكن لصالحها .

وفشل التحكيم في قضية البريمي يبين بصورة خاصة الصعوبة التي ترافق محـاولة فرض مبادىء وأساليب غربية ، هي نتاج تطور طويل الامد ، على شعوب شرقية عرفت تطوراً مخالفاً في حياتها .

وسنرى كيف ان هذا الامر سيكون له نتائج أخرى .

القوة حل موقت

في السادس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ أعلن السير انطوني ايدن نائب رئيس الوزارة البريطانية أمام مجلس العموم ان قوات شاطىء القراصنة قد احتلت واحة البريمي وطردت القوات السعودية منها .

وأضاف ايدن : « بما ان مفاوضات التحكيم قد فشلت لم يبق أمامنا لاحترام عهودنا ومساندة اصدقائنا سوى اللجوء الى القوة . » وفي اليوم التالي أذاعت الخارجية البريطانية انه قد تم أسر خمسة وعشرين جندياً سعودياً اثناء احتلال البريمي ، سلموا الى السعودية فيما بعد ، واثناء

ذلك وقع في قبضة الانجليز عدد من المستندات . وعلى الفور احتجت العربية السعودية بشدة ضد العدوان البريطاني المسلح عـــل واحة البريمي واحتلالها عسكرياً في سلسلة من البيانات والمنشورات على التوالي في لندن وباريس وهيئة الامم المتحدة في نيويورك . وأشار البيان المنشور في باريس بصورة خاصة الى ان العربية السعودية لن تعترف بأي امتياز ممنوح أو سيمنح في المستقبل لأي كان دون موافقتها في البريمي .

والعلاقات البريطانية السعودية التي بدأت تسوء منذ توقيع حلف بغداد وصلت بعد هذا الحادث الى أحرج ساعاتها . وانتظر العالم ان يؤدي ذلك الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . ولكن ذلك لم يحدث على الرغم من استدعاء السفير السعودي من لنـــدن . وظلت العلاقات متوترة عدة أشهر .

وفي الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ رفضت حكومة لندن صراحة عرضاً تقدمت به السعودية في التاسع من تشرين الثاني ، يقترح العودة الى عمليات التحكيم التي انقطعت ، وأكدت في جوابها ان الافساد والتهويل قد وصلا الى درجة لا تطاق منذ ثلاث سنوات . ويشير البيان البريطاني الى ان العملية التي تمت في ٢٦ تشرين الاول ، على يد القوات المحلية ، لم يكن هدفها سوى إعادة وضع سابق شرعي كان قد نقضه السعوديون في حملتهم على البريمي عام ١٩٥٢ تلك الحملة التي كانت مخالفة صريحة للمواثيق السابقة (المـــادة السادسة من ميثاق جدة بصورة خاصة) والوضع العام في منطقة الشرق الاوسط الذي كان توتره في ازدياد مستمر ، لم يكن غريباً عن تصلب موقفي البلدين المتنازعين .

وفي الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٩٥٥ طفـــح الكيل عنـــد السعوديين وعيل صبرهم عندما نزلت الضربة الثانية في نزوة وأرغمت امام عمان على الهرب موطدة سيادة أصدقاء بريطانيا على سلطنة عمان . وفي نهاية شهر كانون الاول سنة ١٩٥٥ اجتمع السلطان سعيد

ابن تيمور سلطان مسقط وعمان في قرية البريمي بزميله سلطان ابي ظبي الشيخ شخبوط بن سلطان لابرام اتفـاق تاريخي بشأن اقتسام السيادة على الواحة .

وبعـد سكوت دام بضعة اشهر أدى الضغط في الولايات المتحدة الاميركية الخائفة الناقة من تطور الاحداث الى بعث القضية على الصعيد الدبلوماسي . وخلال زيارة السير انطوني ايدن لواشنطن في شباط سنة ١٩٥٦ كانت قضية البريمي في رأس قائمة الموضوعات التي أعدت ليدرسها المسؤول البريطاني مع المسؤولين الاميركيين . وقـد حاولت الخارجية الاميركية عبثاً اقناع البريطانيين بالعودة الى التحكيم من جديد . والسعوديون الذين بدأوا يظهرون مخاوفهم من تطور الاوضاع هم الذين طلبوا الى الرئيس ايزنهاور ان يتدخل في قضية البريمي شخصياً . ولكن اجتماعات ايدن – ايزنهاور لم تؤد مباشرة الى الحل المطلوب . واضطرت كل من الخارجية البريطانية والاميركية لأن تعترف بوجود تباين في وجهات النظر بشأن قضية البريمي .

كان البريطانيون آنذاك مسرورين لأنهم وفقوا الى ضبط محاولات تهريب الاسلحة لذلك اظهروا تصلبـاً كلياً ولكن ممثليهم الدبلوماسيين تلقوا اخيراً تعليمات بوجوب الابقاء على شعرة معاوية . وفي السادس والعشرين من نيسان سنة ١٩٥٦ اعلنت الخارجية البريطانية بإيجاز عودة العلاقات الدبلوماسية الطبيعية بين بريطانيا والعربية السعودية . وفي الثاني من شهر ايار التالي علم ان السفير البريطاني في جدة قد بدأ محادثاته من اجل اعادة العلاقات بين البلدين الى ما كانت عليـه من ود وصداقة تقليديـين . ولكن هذه المحادثات لم تصل الى نتيجة ايجابية لأن ازمة السويس آنذاك في الشرق الاوسط قد سدت كل باب للتفاهم سلمياً بين العرب وبريطانيا .

بريطانيا امام التجربة

ليس هناك من شك في ان الضغط الاميركي هنا وهناك قد لعب دوراً هاماً في اعادة العلاقات الانجليزية السعودية . فقد كانت الولايات المتحدة تخشى تدويل نزاع قد تضطر فيه ان تساند وجهة النظر السعودية. واميركا ذاتياً عن قصد او غير قصد تضع نفسها في المعسكر المعادي لبريطانيا. قبل ثلاثة اشهر من ضربة السويس الصاعقة ، كانت الخارجية الاميركية ما تزال تعتبر جمال عبد الناصر عنصر تهدئة في الشرق الاوسط. ويبدو ان جون فوستر دالس قد خُدِع بتقارير سفيره في القاهرة السيد هنري بايرود. وقد بنى استراتيجيته على اساس حسن نية الزعيم المصري، رغبة منه في قطع الطريق على الاغراءات السوفياتية . وبعد ان شجعت الولايات المتحدة اللعبة المصرية فترة طويلة ، اعتقدت انها اصبحت سيدة الموقف ، فسحبت فجأة عرضها لتمويل بناء السد العالي ، على اعتبار ان الوصل بين عبد الناصر والاتحاد السوفياتي قد انقطع . وبعد مضي اسبوع واحـــد فقط على تصرف الولايات المتحدة هذا اجاب الرئيس عبد الناصر على ذلك في السادس والعشرين من تموز سنة ١٩٥٦ بضحكة مقهقهة . اذ قد اعلن تأميم قناة السويس، وفوراً اعلنت العربية السعودية انها تؤيد مصر تأييداً تاماً في خطوتها المباركة .

وقد كان تأميم قناة السويس كما هو معروف نقطة انطلاق لأحداث كبيرة . وكان لا بد ان توضع جميع خلافات الشرق الاوسط الاخرى على الرف مدة بضعة اشهر. وهكذا وجدت قضية البريمي نفسها معلّقة. ثم جاء التدخل الفرنسي – البريطاني على مصر في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ « ليجمدها » وكان من نتيجة ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والعربية السعودية ، بداية عهد جديد من العلاقات العربية

البريطانية :

ان التحدي الكبير الذي جبه به عبد الناصر الدول الغربية الكبرى ، وفشل كل محـاولة قانونية لفض الخلاف ، ثم اخيراً العدوان الفاشل المخزي على بور سعيد ، كل هذا جعل من ازمة السويس ثورة احس بها العرب اكثر من الاوروبيين . وفضلاً عن ذلك ، فيما يتعلق بالخليج العربي بصورة خاصة ، يبدو لي ان العرب اساءوا تقدير العزم البريطاني. ففي عام ١٩٥٨ كما في مطلع العصر ، تعتبر بريطانيا ان كل محاولة للقضاء على وجودها ونفوذها في الخليج العربي يهدد اكثر مصالحهـا الحيوية . وللمحافظة على مصالحها البترولية مستعدة كل الاستعداد للمخاطرة بكل شيء ، وشن اية حرب مهما كانت النتائج وذلك لأن قطع البترول عنها معناه على كل حال القضاء على وجودها نفسه .

وفي الوقت نفسه تقفل بريطانيا على نفسها في نطاق تزداد خطورته مع الايام . ونتيجة تعهداتها القديمة التي تفرض عليها حماية علاقاتهـا وامتيازاتها ، ترى بريطانيا نفسها مضطرة لحماية استقلال امارات ومشيخات رجعية التركيب ، في الوقت الذي يتطـور فيه رعاياها بسرعة مذهلة يفتحون عيونهم على ما يجري حولهم . والخوف المسيطر على لندن يكاد يقض مضجع المسؤولين فيها،واي تهاون او ضعف في المساندة البريطانية في نقطة او في اخرى من الخليـج ، معناه انهيار نظام قائم على بضعة اشخاص مخلصين للصداقة البريطانية. وللاحتفاظ ببترول الخليج والارباح الطائلة التي يدرها ، تجد بريطانيا نفسها ملزمة اكثر فأكثر بوجوب تقديم مساندة مسلّحة لكل من اصدقائها حكام الخليج ، مهما كانت نوعية الاسباب الداعية لذلك .

ترى هل هذا النظام هو الافضل ؟ – نستطيع احياناً ان نشك في ذلك . لقد عزمت وزارة الخارجية البريطانية كما يبدو وقررت نهائياً ان تربط بها مصير جميع الامارات والمشيخات العربية الواقعة على الخليج

العربي دون ان تأخذ بعين الاعتبار كبر هذه الكيانات او صغرهـــة وانتاجها البترولي ، وامكاناتها الحياتية . في هذه المنطقة التي لا حدود لها فاصلة فيهـــا ، والتي سمّمها البترول ، لم يبق للدولة الوصية حرية الاختيار،وهي ملزمة بالدفاع عن المصالح المشتركة بين الشركات البترولية وامراء الخليج ومشايخه .

وهذا التصرف معناه رفض التبصر ، وعدم الاقرار بأن الايام قد تغيرت حتى في الخليج العربي .

١٤

شاطئ القراصنة وشاطئ البترول

بين شبه جزيرة ماسندام نهاية الخليج العربي ، وشبه جزيرة قطر في وسطه يحمل شاطىء الجزيرة العربية اسم « شاطىء القراصنة » او « شاطىء الهدنة » والى الشمال من هذا الشاطىء بين الاحساء والكويت نجد اكبر احتياطي معروف للبترول في العالم . ان هذه الضفة العربية للخليج مقسمة سياسياً بين العربية السعودية في الاحساء ، وحوالي عشر امارات تدخل كلها في نطاق الحماية البريطانية ، وهي متفاوتة المساحة ، ويعود الفضل في الابقاء على استقلالها الى التنافس البترولي بين الشركات الاميركية والبريطانية ، وامارات الخليج كما يطلق عليها احياناً ، لا تمثل مع ذلك لا منفردة ولا مجتمعة كياناً سياسياً مماثلاً لمحمية عدن ؛ مع ان النتيجة العملية هي واحدة .

في الجنوب العربي تمنح وثيقة الحماية الحكومة البريطانية سلطة التشريع ، والادارة ، اما امارات الخليج فقد أشير في النصوص الرسمية الى انها « دول ذات سيادة مرتبطة بمعاهدات خاصة مع الحكومة البريطانية »

أنها « دول محمية » وينطبق عليها التعريف التالي – بلد خاضع لحاكم محلي ينعم بحماية الدولة البريطانية التي تشرف على سياسته الخارجية دون ان تتدخـــل في شؤونه الذاتية – وهذا الفرق بين محمية من الطراز الاستعماري ، كمحمية عدن او « دول محمية » كأمارات الخليج يظهر في التطبيق العملي للحماية ، اذ ان الحماية الاولى تتعلق بوزارة المستعمرات بينما الحماية الثانية من اختصاص وزارة الخارجية .

ونظام الدولة المحمية « يشمل مشيخات شاطىء القراصنة السبع ، وقطر ، والبحرين ، والكويت » ان بريطانيا مرتبطة مع كل هذه الدول بمعاهدات تخوّلها الاشراف التام على سياستها وعلاقاتها الخارجية وخاصة فيما يتعلّق بالامتيازات البترولية التي لا تستطيع هذه الدول ان تمنحها الا بموافقة الحكومة البريطانية . وهذا الوضع الممتاز لبريطانيا كان ابن سعود قد اعترف به رسمياً في المادة السادسة من معاهدة جدة المعقودة في العشرين من ايار سنة ١٩٢٧ ولم يعكر صفاؤه الا في الفترة الاخيرة.ومن الوجهة التاريخية كانت اقامة اول مقيم بريطاني في مسقط احد الاسباب التي اتاحت للحكومة البريطانية ان تستأثر بالنفوذ في هذه المنطقة الحساسة من العـــالم . والصراع ضد القرصنة وتجارة الرقيق ، اللذين حرّمها القانون البريطاني منذ فجر القرن التاسع عشر ، أدّيا عام ١٨٣٠ الى عقد سلسلة من اتفاقات الهدنة مع مختلف زعماء شاطىء القراصنة وشركة الهند الشرقية (البريطانية).ثم تبع ذلك وأكمله عام ١٨٣٠ الاتفاق العـــام للسلام الدائم ، الذي فتح صفحة السيطرة البريطانية المطلقة على الخليج العربي ، هذه السيطرة التي مضى عليها ما يقرب من قرن ، وهذا الاتفاق هو الذي اعطى شاطىء القراصنة ، اسمه الجديد « شاطىء الهدنة » .

شاطىء القراصنة

لم يؤد النفوذ البريطاني بالطبع مباشرة دون جهـد ، الى زوال القرصنة في الخليج العربي ، ولم يكن لاجمل المعاهدات وأفضلها في يوم من الايام القدرة السحرية على تغيير العادات الموروثـة عند البشر فجأة . لقد كانت منطقة الخليج منذ القدم ملجأ خطيراً لمغامري البحر ، ولكن مراكبهم الصغيرة ذات المؤخرة المرتفعة لم تكن تستطيع أن تدخل في سباق السرعة مع السفن البخارية الحديثة . وشيئاً فشيئـاً تمكنت البحرية الملكية من ان تنتصر على القراصنة . والتهريب وتجارة الاسلحة والرقيق الابيض كل ذلك ما زال حتى اليوم وسيلة من وسائل الربح في هذه المنطقة الشحيحة لجوّابي البحار الحقيقيين ولم يقض عليها نهائياً.

يبسط المشايخ الصغار السبعة الذين تتقاسم اماراتهم ، التسمية العامة لشاطىء القراصنة سيادتهم على مساحات متفاوتة من الصحراء الجرداء ، التي تنتشر فيها المستنقعات المالحة هنا وهناك . والمساحة الهامة لا يمكن تقديرها الا على وجـه التقريب . وهي بين عشرين الى ثمانين الف كيلومتر مربع ، وتنحصر الحياة الانسانية تقريباً في قرى الشاطىء ، وفي قرى واحة البريمي . وقدر هؤلاء السكان بثمانين الف نسمة ، ثلاثون الفاً منهم يجتمعون في ظبي والميناء الرئيسي في المنطقـة ، ومقر الممثل البريطاني . وفقر هذه المنطقة اذا ما قورن بالاقطار المجاورة العجيبة يدفع سكانها الى الهجرة الموقتة للعمل في البحرين ، وقطر ، او الكويت ، اما البدو المتنقلون في الداخل فعددهم يزيد عن عشرة آلاف .

وأربع من هذه الامارات ليست سوى قرى ساحلية هي ، عجمان ،

ام الكيوين ، رأس الخيمة ، وفجيرة ، وبين الثلاث الباقية ظبي هي اكبر مدينة ، والميناء الاكثر اهمية ، والشارب التي تتبعها كلبه مشهورة بالقاعدة الجوية التي اقامها سلاح الجو الملكي البريطاني فيها وأما ابو ظبي فهي اوسع الامارات مساحة . ومهما تكن المساحة صغيرة ام كبيرة فان كلاً من هذه الامارات السبع تحرص الحرص كله على استقلالها التام . ونزاعاتها المستمرة فيما بينها ازدادت حدتها في السنوات الاخيرة بعد ان تسلط البترول على عقول ومخيلات الناس والمشايخ .

ويمضي المندوبون البريطانيون كامل اوقاتهم في فض خلافات لا طائل تحتها والمحاولات السرية التي بدأت منذ سنة ١٩٤٥ بغية اقامة نوع من الاتحاد بين الامارات أدت الى عقد اجتماعات نصف سنوية تقريباً في نطاق مجلس الامراء الذي يشرف عليه المندوب البريطاني . وقوات شاطىء القراصنة التي يقودها الكولونيل اريك. ف. جونسون وضباطه الاثنان والعشرون المختارون من الجيش البريطاني ، تفرض السلام البريطاني وقد رأينا الدور الذي لعبته هذه القوات في قضية البريمي .

الصراع من اجل الحياة والامتيازات

ان هذا الشاطىء المتقطع الذي تتحمله الصخور المرجانية والجزر الصغرى ، والاعماق السحيقة ، هو اول ميدان للمعركة الضارية بين الانسان وعناصر الطبيعة . على الشاطىء نجد البحارة كل وقت يبنون مراكبهم الراقصة ، للصيد الموسمي ، صيد اللؤلؤ او صيد السمك

والزوارق نفسها ما زالت تمر احياناً في الليل امام سفن دوريات الامن البريطانية لتفرغ بدون ضجة ، في جون ما ، حمولتها المهربة بعيدة عن اعين الرقباء ؛ وفي الداخل عدا بعض الاماكن النادرة التي تنعم بالمياه وبضع شجيرات من النخيل ، تحتكر واحة البريمي كل مظاهر الحياة والزراعة الحضرية . ومنذ احتلالها في تشرين الاول سنة ١٩٥٥ والواحة تفيد من المساعدات المالية البريطانية التي تستهدف تنمية الانتاج . وقد تم حتى الآن تصليح اقنية الري الضرورية ، وزود الفلاحون بمضخات الماء الى جانب مستوصف مجاني .

ورأس الخيمة آخر الامارات الى جهة الشرق ، والأكثر قحلاً وفقراً هي الأخرى موضع اهتمام خاص لتطويرها زراعياً . وقد أعدت الحكومة البريطانية مشروعاً انمائياً لمدة خمس سنوات يكلف مبدئياً نصف مليون جنيه استرليني .

واذا كان احفاد القراصنة القدماء قد بقوا بصورة خاصة صيادي أسماك وغطاسي لؤلؤ ، فما ذلك إلا لأن الفائدة التي يمكن ان تقدمها بلادهم الفقيرة لا تأتي الا عن طريق البترول . وقد نشطت عملياته منذ عدة سنوات ، ولكن النتائج لم تكن مشجعة كثيراً اذ تبين أن الآبار جافة والزيوت بالغة الثقل والغازات خطرة : وما زال الحفر مستمراً في عدة اماكن على اليابسة وتحت مياه الخليج . وامتياز التنقيب على اليابسة هو من نصيب شركة التطوير البترولية المحدودة (شاطىء القراصنة) احدى تابعات فريق شركة بترول العراق التي تم القسم الأكبر من تنقيبها في ابي ظبي . اما الامتيازات القعرية فقد منحت لشركات مختلفة . ومنذ تصريح ترومان سنة ١٩٤٥ ، والدول البحرية في العالم تعلن سيادتها على الحوض البحري . وفي عام ١٩٤٩ اكدت امارات الخليج

سيادتها على الحوض البحري الممتد من الشاطىء حتى خط وسطي وهمي يقسم الخليج ؛ وبعد ذلك فتح الامراء المزاد :

وقد مُنـح امتياز التنقيب في الحوض البحري في ابي ظبي اول الامر الى الشركة العليا للبترول « السوبريور اويل » التي تتبع الشركة البحرية الدولية للبترول « الانترناشيونال مارين اويل كومباني » وعلى اثر احتجاجات شركة التطوير البترولية احدى بنات شركة بترول العراق، تشكلت لجنة دولية للتحكيم ، اجتمعت في باريس في تموز سنة ١٩٥١ لتتعرف الى ماهية الامتياز الجديد . ودون عناء تخلت الشركة البحرية الدولية للبترول قبل ان تتوسع في عمليات التنقيب عن حقوقها عام ١٩٥٢ وحصلت على الامتياز من جديد في آذار سنة ١٩٥٣ شركة « دارسي للتنقيب » احدى توابع شركة البترول البريطانيـة (الأنجلو ايرانيان سابقاً) بالاشتراك مع شركة البترول الفرنسية بنسبة الثلث . ومنذ بداية سنة ١٩٥٤ بدأ العلماء الجيولوجيون دراساتهم . وفي اوائل عام ١٩٥٨ بدأت عمليات الحفر في المياه المحيطة بجزيرة « داس » .

اما شيخ ظبي الامارة الثانية في الشاطىء من حيث الأهمية ، فقد منح منذ عام ١٩٥٢ امتيازاً للتنقيب في الحوض البحري مدته ستون سنة لشركة ثلثاها لشركة البترول البريطانية والثلث الباقي لشركة البترول الفرنسية .

التفرد البريطاني

تعود في الوقت الحاضر بدلات الامتيازات البترولية على شاطىء الامراصنة بما يقرب من مئة وخمسة وسبعين مليون فرنك ، ثمانون بالمئة منها تذهب الى ابي ظبي : وتبدو هذه المبالغ كأنها حسنات زهيدة اذ ما قيست بالمليارات التي تنهال بالمئات على صناديق الكويت والعربيـة

السعودية . حتى لو لم يعثر على البترول مطلقاً هناك ، فأن شاطىء القراصنة يجب ان يطور ويدافع عنه من قبل الانجليز بالاندفاع نفسه اذا لم يكن اكثر من الاندفاع الذي يدافعـــون به عن الكويت وقطر والبحرين . وشاطىء القراصنة الخالي من البترول هو الثمن الذي تدفعه بريطانيا للمحافظة على نفوذها وسيطرتها في الخليج على شاطىء البترول . وفي مظاهرتي القوة في البريمي وعمان اظهرت لندن ما يكفي من العزم لتبرهن على ان الحكومة البريطانية تفهم قضايا امارات الخليج كلاً لا يتجزأ .

وتميل بريطانيا الى عدم احترام تعهداتها بدقة تامة تجاه جميع الامراء والمشايخ العرب الداخلين في حمايتها حتى لا تخسر وداً اي من اولئك الذين تجني منهم اضخم الارباح . وهي مضطرة بسبب هذا الموقف العام ان تحافظ على زعماء هذه « الدويلات » الصغيرة وحكامهم لأن اجدادهم كانوا قد وضعوا مصيرهم بين يدي التاج البريطاني .

ففي آذار سنة ١٨٩٢ وقع مشايخ القراصنة معاهدات ثنائية مانعـــة كتلك التي وقعها زعماء محمية عدن . وبموجب هذه الاتفاقات وعد كل من المشايخ بألا يقيم اية علاقات مع اية من الدول غير بريطانيا ، الا بموافقة هذه الاخيرة كما وعد من ناحية ثانية بألا يتنازل عن اي قسم من اراضيه لأي كان او لاية حكومة الا للحكومة البريطانية ، وكذلك وضع كلياً على عاتق بريطانيا مهام علاقاته الخارجية بما في ذلك علاقاته مع باقي مشايخ الشاطىء . اما الاتفاقات اللاحقة التي وقعت في عامي ١٩١١ و١٩١٢ فقد وسعت نطاق الاحتكار البريطاني ليشمل الامتيازات اللؤلؤية والبتروليـــة . وبموجب هذه الاتفاقات التي ابرمت لأجل غير مسمى يشرف ضابط سياسي بريطاني على سياسة شاطىء القراصنة الخارجية بينما يحتفظ المشايخ بحرية التصرف داخلياً . وهم يحكمون حكماً مطلقاً ؛ وهذا « المطلق » مقيد بتعهداتهم بمنع القرصنة وتجارة الرقيق وبصورة عامة كل عمل مناوىء في البحر .

وتظهر بريطانيا منذ بروزها في شاطىء القراصنة وعلى الاصح ممثلوها المحليون خوفاً شديداً من الزوار الاجانب كأنهم مرض خطير او وباء مبيد. ولا يتجول اجنبي على شواطىء الخليج العربي اذا لم يكن مرغوباً فيه. ويجب ان يكون له مهمة ولا يستغنى عنها. وهذه المراقبة الحذرة تستطيع ان تمنع الافكار والعادات الجديدة من التسرب والانتشار والقضاء كدود الخشب، على نظام الحياة القديمة في الصحراء، ويبدو ان كثيرين من البريطانيين قد افهموا ذلك. ولكن ما زال هناك حفنة من اشباه اللورانسيين في لندن والخليج لم يروا من تحت كوفيتهم التي يحرصون على نظافتها شيئاً من التطورات التي تحصل منذ عشر سنوات في المنطقة، ولم يتحسسوا بعد بالقومية العربية الصاعدة. ولم يبق عليهم الا ان ينظروا حولهم في الخليج ليروا ان النفوذ البريطاني اصبح من مخلفات الماضي

قطر

قطر هي احدى الامارات الصحراوية التي تنفرد فيها الحكومة البريطانية بحقوق مميزة. وهنا كما هي الحال في البحرين والكويت يقلب انتاجُ البترول المعطيات القديمة رأساً على عقب. وفي كل هذه الامارات البترولية تمر الاحداث سريعة، الامر الذي يزيد من اهمية تاريخ فترة، لن يكون لها وجود في حركة تطورية بالغة السرعة:

تغطي الامارة بالضبط شبه الجزيرة التي تقسم الخليج الى قسمين: وقد يخامرنا الظن ان تكوينها الطبيعي يقلل من اخطار الخلافات على السيادة. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. ذلك ان حدودها الداخلية لم تعين يوماً. وهي في نزاع مستمر تارة مع ابي ظبي، وطوراً مع العربية السعودية، من اجل تعيين هذه الحدود.

ومساحة شبه الجزيرة القطرية التي تبلغ عشرين الف كيلومتر مربع

تقريباً تشكل منبسطاً صحراوياً مستوياً مجدباً ومحرقاً ، يحيط به شاطىء متقطع ، تتخلله الصخور المرجانية . ولا مجال هنا للتحدث عن تطوير زراعي . اذ ان بعض الآبار فقط تُعطي مياهاً شحيحة ومالحة ، تسقي واحات صغيرة من النخيل هي ملاجىء البدو .

وليس هناك ما يقطع كآبة الصحراء سوى الطرقات الحديثة التي تربط بين المراكز البترولية ، ميناء ام سعيد ، والدوحة العاصمة.

والسكان الذين قُدّر عددهم بخمسة وعشرين الفاً عام ١٩٥٤ ، يظهر انهم تضاعفوا فيما بعد . وهناك قسم من سكان شاطىء القراصنة جذبهم بالطبع ازدهارُ شبه الجزيرة المجاورة . والى جانب استثمار البترول تقبل النشاطات الثانوية المتطورة عدداً متزايداً من القطريين الذين كانوا يرتزقون من الصيد وصناعة اللؤلؤ وتربية المواشي . وبين الحقول الجديدة المزدهرة، يحتل البناء مركزاً ممتازاً الى جانب النقل في السيارات . ولقد دخلت قطر في ميدان التطور بعد تردد . ولكن عائداتها المتصاعدة دائماً اجبرتها على الاقتداء بجاراتها المنتجة ، وهنا طبعاً ، لا يفيد الجميع النسبة نفسها من الثروة الجديدة. ان اكبر الاغنياء في هذه المنطقة ممن بثوا قوتهم على الاحتكار الغريب في حقول مختلفة ، هو عبد الله درويش « الرجل الذي يملك خمسين سيارة كاديلاك »

انه السيد الاكبر في هذا اللسان الصحراوي المتقدم في البحر الذي لا يحتوي على موارد سوى البترول الاسود .

البترول

كان بترول قطر فترة من الوقت من نصيب الشركة الانجليزية الايرانية ، ثم تحول الى احدى تابعات شركة بترول العراق شركة التطوير البترولية التي تدعى شركة بترول قطر . يبدأ الامتياز من سنة

١٩٣٠ وهو خمس وسبعون سنة ، حتى عام ٢٠١٠ والتنقيب الذي بدأ عام ١٩٣٧ اعطى نتائج ايجابية منذ سنة ١٩٣٩ على الشاطىء الغربي من شبه الجزيرة ، المقابل للبحرين . وفي منطقة دخان الكثيرة المستنقعات عُثر على جيب صالح للاستثمار . ولكن الحرب العالمية الثانية اوقفت كل تنقيب . واضطرت الشركة الى اقفال الآبار الاولى التي حفرتها.

وادت الاعمال التي استؤنفت عام ١٩٤٧ الى انتاج تجاري متزايد منذ عام ١٩٤٩ . وفي فترة وجيزة مُـدّت الانابيب وبنيت الخزانات ، واحدثت مرافىء التعبئة ، والمدن البترولية للعمال ، وهذه لائحة بالانتاج الخام بالطن المتري .

السنة	الانتاج بالطن
١٩٤٩	٩٦،٠٠٠
١٩٥٠	١،٦٣٢،٠٠٠
١٩٥١	٢،٣٦٩،٠٠٠
١٩٥٢	٣،٢٩٧،٠٠٠
١٩٥٣	٤،٠٦٢،٠٠٠
١٩٥٤	٤،٧٧٨،٠٠٠
١٩٥٥	٥،٤٣٨،٠٠٠
١٩٥٦	٥،٨٧٦،٠٠٠
١٩٥٧	٦،٦٤٨،٠٠٠

وعلى الرغم من النكسة التي اصيب بها الانتاج في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ من جراء اقفال قنال السويس عاد المستوى الى الارتفاع خلال سنة ١٩٥٧ حتى تجاوز ستة ملايين طن . وبسبب هذا النمط من الانتاج المتزايد سينضب المخزون البترولي المعروف في شبه الجزيرة بسرعة.وخلافاً لما جرى بالنسبة للقارة العربية لم يكتشف في قطر اي حقل بترولي بعد

دخان. وحسب تقديرات ١٩٥٣ يبلغ احتياطي قطر ملياراً ومائتي مليون برميل اي ما يمثل في ذلك الوقت نسبة واحد في المائة من احتياطي العالم غير الشيوعي آنذاك .

ولكن اليأس لم يدب في القلوب بعد ، لأنه ما زالت هناك امكانية العثور على البترول في الحوض البحري وقد كانت قطر اول امارة منحت امتيازاً للتنقيب في الحوض البحري في عام ١٩٤٩ الى شركة غير تلك التي تعمل في اليابسة . ونتج عن ذلك خلاف بين شيخ قطر والشركة صاحبة الامتياز في اليابسة (شركة بترول العراق) حُلَّ في النهاية لصالح الشيخ عن طريق لجنة تحكيم اجتمعت في الدوحة في كانون الثاني سنة ١٩٥٠ ، ونتيجة لذلك حصلت شركة شل للتنقيب عبر البحار التي تتبع فريق « رويال – دوتش – شل » على امتياز التنقيب في الحوض البحري الممنوح في البدء الى الشركة العليا للبترول التابعة «للشركة البحرية الدولية للبترول » وقد بدأت شل اعمال الحفر في جون الدوحة منذ سنة ١٩٥٤ بواسطة جزيرة اصطناعية عائمة فريدة من نوعهـــا في العالم وأنفقت مئات الملايين على هذا العمل الذي ذهب هباءً بسبب عاصفة غير منتظرة هبت في كانون الاول سنة ١٩٥٦ وخربت كل ادوات الحفر . وكانت قد كلفت ملياراً من الفرنكات وسنتين من العمل. وعلى الرغم من ذلك اعلنت في اوائل شباط سنة ١٩٥٧ عن تصميمها على العـــودة الى العمل من جديد في مكان آخر ، وعلى تأجير مكان للحفر الى شركة اخرى . ان هذا الاصرار يؤكد الآمال في العثور على جيوب بترولية هامة في الحوض البحري .

تشكل العائدات الناتجة عن الصناعة البترولية المورد الرئيسي في قطر، ويخصص الشيخ قسماً كبـــيراً من هذا المورد لترقية حياة رعاياه الذين يبلغ عددهم عشرين الفاً تقريباً .

ومنذ عام ١٩٥٢ وقع اتفاق جديد لتقاسم ارباح البترول مناصفة بين

الشيخ والشركة الأمر الذي جعل عائدات الشيخ ترتفع الى خمسة عشر مليون دولار عام ١٩٥٥ . والدوحة العاصمة الطينية القديمة لهذه الامارة الرملية هي في طريق التحول الى مدينة حديثة مضاءة بالكهرباء ، مرصوفة الشوارع ، ومياه البحر المكررة تسيل عذبة من حنفيات منازلها .

ان الشيء الذي لم يتغير بعد ، هو نظام الحكم المطلق الذي يزاوله الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني ، الذي خلف والده عام ١٩٤٩ والى جانب ابنه الشيخ احمد هناك مستشار بريطاني يدعى المستر هنكوك وهو يعاون الشيخ في ادارة شؤون الامارة الداخلية ، على رأس عدد من كبار الموظفين البريطانيين الذين يعملون في خدمة الامارة : اما الشؤون الخارجية والدفاعية فهي بين يدي وزارة الخارجية البريطانية ، عن طريق ممثلها السياسي في قطر السيد د. س. كاردن . وتزاول انجلترا هذه السلطات بموجب اتفاقات مماثلة للمعاهدات المعقودة مع سادة شاطىء القراصنة ، التي تعطي بريطانيا حق التفرد في العلاقات والامتيازات . والاتفاق الأول المعقود في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩١٦ جدد عام ١٩٣٤ ليشمل ويعرّف الحماية البريطانية . ومع ان محتواه لا يختلف عن محتوى الاتفاقات المعقودة مع مشايخ شاطىء القراصنة فإن شيخ قطر مرتبط بعلاقات اوثق مع الدولة الحامية .

البحرين ، لؤلؤة الخليج

تتألف امارة البحرين المشهورة منذ القدم بمصائد اللؤلؤ من مجموعة من الجزر . وأكبر جزيرة فيها هي التي اعطت اسمها للأرخبيل . والبحرين التي جعلت مقر المقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج ، تختلف عن جاراتها في عدة نواح .

يغطي الأرخبيل بأسره مساحة لا تزيد على خمسمائة وواحد وخمسين

كيلومتر مربع ٥ واثنتان من الجزر الخمس الصغرى مأهولة بالسكان فقط الى جانب الجزيرة الكبرى . وعلى الرغم من صغر المساحة فان البحرين لؤلؤة الخليج العربي ، تحوي مجموعة كثيفة من السكان كثيرة الحساسية مستعدة دائماً الى التظاهر . بعضها يعيش في المدن ، والبعض الآخر في القرى . والينابيع الطبيعية التي تتفجر في شمال الجزيرة الكبرى اتاحت للبحرين تطوراً زراعياً فريداً ، تكلل عام ١٩٥٧ بمظاهر لا سابق لها ، هي اول معرض زراعي في الخليج العربي ..

والسكان الذين قدر عددهم عام ١٩٥٧ بمئة وخمسة وعشرين الفاً يضمون حوالي السدس من الأجانب الذين تأتي في مقدمتهم الجاليات الايرانية ، والهندية ، والانجليزية والباكستانية . وهناك ايضاً جاليات اتت من البلدان العربية الاخرى ، وامارات الخليج . وهي متفاوتة الأهمية . وبين هؤلاء العرب نجد المثقفين الذين جاؤوا من مصر وفلسطين والعراق ولبنان وسوريا ، وهؤلاء على الرغم من قلة عددهم يتمتعون بنفوذ بارز ، والى جانبهم نرى السعوديين والعمانيين ، والقطريين ، واليمنيين ، وغيرهم ، وهؤلاء جميعاً يبدون كأنهم اندمجوا تماماً مع اهالي البحرين . وفي البحرين الفا بريطاني ، وما يقرب من خمسمائة اميركي وأوروبي ، وثلاثة اخماس السكان يعيشون في المدن الثلاث ، المنامة ، المحرق والحد . أما الباقون فموزعون على تسعين قرية ومزرعة وهناك بضعة آلاف يعيشون في مراكبهم باستمرار .

التطور الاقتصادي والنزعة القومية

البحرين بلد اسلامي اجمالاً ، وستة وتسعون بالمئة من سكانها مسلمون والصفة الرئيسية للمجتمع البحريني ، تكمن في تنوعه الطائفي ، اذ ان المسلمون منقسمون الى سنّة وشيعة ، وقد كانت هاتان الطائفتان على

مر تاريخها في نزاع مستمر . وحصلت بينها مناوشات . ويبدو الآن ان النزعة القومية ستنتصر في القضاء على الفرقة بين ابناء الطائفتين ، فتوحد بينها لمجابهة الأجانب الايرانيين والهنود الذين يعملون في التجارة او لحساب الشركة البترولية . واليهود اختفوا تقريباً من البحرين بعد ازدياد النقمة عليهم هناك ، على أثر قيام دولة اسرائيل على اشلاء عرب فلسطين.

وعلى الرغم من ان السنيين أقلية فهم يتصرفون كأنهم الأكثرية ، الأمر الذي يعكس وضع اليمن من الناحية الطائفية . وعائلة آل خليفة التي تحكم البحرين منذ قرنين من الزمن ، تدين بالمذهب السني . وكذلك المراكز الحساسة في البلاد كلها في يد السنيين . وأما الشيعة الذين يملأون المراكز الأدنى من المجتمع ، فانهم يشتكون مما يلحقهم من تمييزات مقصودة . غير أن التطور بدأ يخرج بهم عن نطاق أعمالهم في الخدمة البيتية ، على أثر تركهم الزراعة التقليدية ، وطبقة المثقفين « العرب التي تنعم بحظوة كبرى » تزود البحرين بجهاز تعليمي ؛ كما تزود البحرين البترولية بجهاز اداري . وهؤلاء المثقفون ، هم الذين يمكننا ان نسميهم ، كما اعتقد ، في البحرين كما في غيرها من الامارات، « رسل القومية العربية »

والقلق التقليدي في الامارة الذي كان يرافق فيما مضى اصطدامات السنّة والشيعة المتباغضين ، حوّله القوميون العرب الى نقمة عارمة ضد الأجانب ، وخاصة البريطانيين . والبحرين هي اكثر امارات الخليج اليوم اضطراماً ، . اذ ان النهضة الاقتصادية التي خلفتها الصناعة البترولية ، خلقت جواً مناسباً لانتشار الدعوة القومية .

وبفضل مركزها الجغرافي ، وينابيعها غير الاعتيادية ، وصناعتها اللؤلؤية القديمة وتجارتها البحرية ، عرفت البحرين في كل وقت في الخليج ازدهاراً نسبياً ، وكوم الأصداف اللؤلؤية في مياهها هي أغنى كوم في المنطقة . وحتى ظهور اللؤلؤ الاصطناعي كان نصف السكان

يعملون في الغطس وراء اللؤلؤ .

وفي غير موسم الغطس كان البحارة والغطاسون البحريون يتعاطون صيد السمك والتجارة . والصناعة اللؤلؤية اليوم هي في تقهقر مستمر في كل انحاء الخليج ، ولا تشغل في البحرين سوى الفين فقط من السكان اثناء موسم الغطس .

والتجارة البحرية وتجـــارة العبور ، هي النشاط الثاني التقليدي في الارخبيل الذي يستورد ثم يصدر لجيرانه كميات كبرى من مختلف البضائع التجارية . وقـد أقيمت منشآت مرفأية جديدة في المنامة الميناء الرئيسي عاصمة البحرين ، وذلك لتسهيل حركة المبادلة . وفي أول كانون الثاني سنة ١٩٥٨ أصبح البحرين ميناء حراً هو الاول من نوعه في الخليج . وفي الداخل يزرع الفلاحون الحبوب والعلف والنخيل والخضار . والنصف الجنوبي من الجزيرة صحراوي ، ينابيعه وبركه مالحة اذا وجدت . وتزود المدن بالمياه الحلوة المكررة من مياه البحر . وفي البحرين اربعة آلاف وستمائة وخمسون هكتاراً من الاراضي الزراعية المروية . ومزرعة « بو ديّة التجريبية » تجري تجاربها من أجل تحسين الانتاج وادخال مزروعات جديدة .

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ نظم اسبوع الانماء الاقتصادي وفيـــه حلت مشكلة الماء عن طريق تدشين الشيخ العمل في آلة حفر مخصصة لشق أقنية لجر المياه .

شركة بترول البحرين

تفيد امارة البحرين كثيراً من عائدات الصناعة البترولية المقسمة بين الاستخراج والتكرير ، على الرغم من أنهـــا أقل ثروة من جاراتها . واكتشاف البترول في البحرين هو الذي لفت أنظار الشركات البترولية

الى هذا القسم من الخليج ، كما كان اكتشاف بئر مسجد السليمان في ايران الحافز الذي جعـــل صيادي الامتيازات يتسابقون في الوصول الى المنطقة . وامتياز التنقيب في البحرين منح أولاً عـــام ١٩٢٥ للشركة البريطانية خاصة الميجور هولمز ، قبل ان تصبح عام ١٩٣٠ ملكاً للشركة الاميركية « ستندرد اويل اوف كاليفورنيا » التي أنشأت لهذا الغرض شركة كندية تابعة لهـــا هي « البابكو » شركة بترول البحرين . واشتراك ستندرد كاليفورنيا مع تكساس أويل عام ١٩٣٤ أدّى الى تشكيل الفريق اللامع كالتكس الذي يملك ٦٠٪ من الارامكو العربية السعودية .

والبابكو شركة كندية الجنسية ، ولكنها اميركية من حيث رأس المال والادارة ، وبريطانية من حيث الجهاز الاداري .

وقد عُثر على البترول في « العوالي » جنوب غربي المنامة سنة ١٩٣٢ وبدأ استثماره منذ عام ١٩٣٤ ، وانتاجه المتواضع نسبياً لا يمكن زيادته إلا بصعوبة ، نظراً للتركيب الطبقي الارضي الذي توجد فيـــه جيوب البترول . وفي كل سنة يجب ان يجري العمل في عشر الى اثنتي عشرة بئراً للمحافظة على المستوى الانتاجي . وقد وصل هذا الانتاج الى حده الأعلى سنة ١٩٤٨ اذ بلـغ مليـــون وخمسمائة الف طن في السنة . وكان الاحتياطي البترولي في البحرين مقدراً عام ١٩٥٣ بثمانمائة مليون برميل . اما تكرير الحقل الثاني من النشاط البترولي في البحرين فقـــد عرف نمواً مستمراً ، مستفيداً بصورة خاصة ، من اقفال مصفاة عبادان الكبرى خلال النزاع الانجليزي الايراني (١٩٥١ — ١٩٥٤)

وقد أنشئت مصفاة البحرين عام ١٩٣٦ في سترة . ومن ستة وستين مليون برميل عام ١٩٥١ زادت طاقتها الى ثمانية وسبعين مليون برميل عام ١٩٥٤ ، أي حوالي عشرة ملايين طن . ولكن تطور منشآت العربية السعودية والكويت حدّ تقريباً من تطور مصفاة سترة . والقسم الاكبر من الخام المكرر في سترة يأتي من آبار الاحساء في أنابيب مدت

تحت الماء طولها ستة وعشرين كيلومتراً.

ومنذ عام ١٩٥٣ بدأت المصفاة تتلقى بترولاً خاماً من سومطرة. وكمية البترول الخام التي يجري تكريرها من انتاج البحرين مستقرة تقريباً في جلود احد عشر مليون برميل في السنة، مقابل ثلاثة وستين مليوناً من العربية السعودية.

تستخدم « البابكو » تسعة آلاف شخص، وهي مع ازدهار الحقول المجاورة الشاسعة والنشاط التجاري المتزايد في كل هذا القسم من الخليج قد جعلت البحرين في وضع ممتاز. وتبلغ العائدات البترولية نحواً من مليونين ومائتين وخمسين الف جنيه استرليني في السنة منذ توقيع اتفاق تقاسم الارباح مناصفة عام ١٩٥٢. وتأتي الرسوم الجمركية التي تتقاضاها الامارة في الدرجة الثانية من حيث الاهمية في العائدات المقسمة الى ثلاثة اقسام: الثلث الاول مخصص للامير وعائلته، ويذهب القسم الأكبر منه الى الهبات التقليدية. والثلث الثاني يستثمر في أسواق المال ويدر أرباحاً جديدة. بينما يخصص الثلث الاخير الى شراء ما تحتاجه الامارة من الخليج، والى تنفيذ برامج التطوير الاجتماعي فيها. وقد بذل جهد خاص في السنوات الأخيرة في حقل التعليم والصحة. وفي امكان الامارة اليوم ان تفاخر بمدارسها ومستوصفاتها ومستشفياتها الحديثة.

النزاع الانجليزي – الايراني

يعود الفضل في القسم الاكبر من التطور السياسي والاجتماعي في البحرين الى علاقاتها الطيبة مع بريطانيا، هذه العلاقات التي تستند، كما هي الحال في شاطىء القراصنة، الى الاتفاق الاول المعقود سنة ١٨٢٠ بين شركة الهند الشرقية (البريطانية) وامير البحرين آنذاك، ثم

الاتفاقات المعقودة في الثاني والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٨٠ ، وفي الثالث عشر من آذار سنة ١٨٩٢ . وقد ربطت شيخ البحرين بنفس القيود التي ربطت بهـا سائر مشايخ الخليج والتي أدت الى الاولوية البريطانية . وأخيراً في رسالتين صادرتين سنة ١٩١١ و ١٩١٤ وعد عاهل البحرين البريطانيين بألاّ يمنح أي امتياز اؤلؤي أو بترولي قبل مشورة الممثل البريطاني لديه والحصول على موافقته . والعاهل الحالي الشيخ سليمان بن حمد آل خليفة خلف أباه عـام ١٩٤٢ ، وهو يحكم منذ ذلك الوقت بمساندة مستشاره البريطاني السير بلغريف .

ان أخطر معارضة لوضع البحرين السياسي تأتي من جانب ايران ، التي تطالب بالارخبيل منذ سنة ١٨٢٩ ، اذ تتهم بريطانيا باختلاس السيادة . وتوقيع معاهدة جدة البريطانية – السعودية عام ١٩٢٧ ، التي جاء في مادتها السادسة ان البحرين دولة مستقلة تربطها علاقات خاصة مع المملكة المتحدة ، أدى الى رفع شكوى ايرانية الى عصبة الامم . ووفقاً لما تدعيه طهران اعترفت المذكرة المؤرخة في ٢٧ نيسان سنة ١٨٦٩ الصادرة عن وزير خارجية بريطانيا آنذاك اللورد كلارندون اعترافاً صريحاً بحقوق ايران في السيادة على البحرين الأمر الذي تكذبه لندن بشدة .

هذا وقد كان منح الامتيازات البترولية عام ١٩٣٠ و١٩٣٤ في كل مرة موضع احتجاج شديـد من قبل حكومة الشاه . وعندما قصفت ايطاليا قاعدة البحرين البريطانية في تشرين الاول سنة ١٩٤٠ احتجت ايران ، التي كانت لا تزال على الحياد ، لدى روما ضد هذا الاعتداء على أراضيها . وفي عام ١٩٤٦ عادت ايران الى مطالبتها من جديـد تساندها الصحافة السوفياتية ، الامر الذي أدى كرد فعل رئيسي الى تقوية القاعدة البريطانية في البحرين . ثم جاء النزاع الانجليزي – الايراني ليبعث القضية من جديد . وفي عام ١٩٥٢ جـدد الدكتور مصدق

الادعاءات الايرانية التي لم تتخل عنها حكومة زاهدي فيما بعد . وقبل الاجتماع الاول لاعضاء حلف بغداد الذي عقد في كراتشي اعلن الدكتور علي اردلان وزير خارجية ايران في السابع من نيسان سنة ١٩٥٦ في طهران بأن البحرين كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من ايران وتلقى ممثلو ايران الدبلوماسيون تعليمات تقضي بالاحتجاج الشديد ضد كل عمل لا يتفق مع السيادة الايرانية على البحرين . وفي الثاني عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ اخيراً اعلنت حكومة ايران انها ضمت ارخبيل البحرين الذي اصبح الولاية الرابعة عشرة من الولايات الايرانيـــة . ومنذ مدة طويلة ، فضلاً عن ذلك ، والحكومة الايرانية ترفض كل جواز سفر يحمل تأشيرة « اجنبية » للبحرين ، الامر الذي لا يتوافق مع «ملكيتها» للارخبيل . ثم عينت طهران حاكماً ايرانياً للبحرين ، وبهذا الخصوص اكتفت لندن بأن اكدت استقلال الامارة في ظل حمايتها .

لم افعل هنا سوى التذكير بالمراحل الرئيسية التي مر بها النزاع السلمي بين بريطانيا وايران بشأن البحرين . وهذا الموجز يدل حسب رأيي على اصرار ايراني عنيف في مطالبة ليس لها اي امل في النجاح في الوقت الحاضر : فلا البحرين ولا اية من الدول العربية الاخرى تقبل مثل هذا الامر وتسلّم به . والارخبيـــل بالنسبة لبريطانيا هو مركز الحراسة ، وقاعدة وجودها في الخليج . ميناؤه قاعدة بحرية ، ومطاره قاعدة جوية وفي احدى مدنه المنامة مقر المقيم البريطاني السياسي لمنطقة الخليج العربي . حيث السير برنار دبوروز يسهر على مصالح بلاده ؛ هذا وقد ادت الاحداث التي وقعت في شرقي الجزيرة العربية في عمان والبريمي الى تقوية النفوذ البريطاني في الارخبيل . وقرار « الضم » الايراني اثير حسب اعتقادي على اثر الاصرار على اعلان خلق ميناء حر في المنامة . ومهما يكن من امر ، فإن ايران قد اظهرت في هذه القضية عناداً شديداً .

النظام الداخلي

تتولى بريطانيا الممثلة بمندوب سياسي غير المقيم العام شؤون البحرين الخارجية والدفاعية ، كما هي الحال في امارات الخليج الاخرى . وفي الداخل يحكم الشيخ سليمان بن حمد آل خليفة ، يعاونه مجلس ادارة مؤلف من افراد عائلته ، ومن كبار الموظفين الانجليز وابرز مستشار بين هؤلاء السير شارل بلغريف الذي يقيم في البحرين منذ عام ١٩٢٦ : والاضطرابات التي بدأت عام ١٩٥٤ باضراب عام استهدف قبل كل شيء السير شارل بلغريف نفسه . ويبدو ان انهاء خدماته في البحرين عام ١٩٥٧ جاء نتيجة للضغط الشعبي .

ويلطف من نظام الحكم في البحرين وجود مجالس للصحة والتربية، نصف اعضائها ينتخبون انتخاباً منذ عام ١٩٥٦ . بينما يعيّن الامير النصف الآخر . ويتم تأليف المجالس البلدية في مدن المنامة والمحرق والحد ، ورفاع ، بنفس الطريقة . وهناك لجان خاصة مكلفة بشؤون اقسام خاصة من الادارة . وعلى الرغم من نظام الحكم في البحرين وما فيه من نواقص فإنه متقدم جداً على انظمة الحكم في الامارات المجاورة . ومع ذلك تزمجر المظاهرات احياناً في لؤلؤة الخليج ، وقد حصلت اصطدامات حادة عنيفة عام ١٩٥٦ اثناء مرور السيد سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية في البحرين . واضطرت السلطات الى تأخير موعد سفره اربع ساعات كتدبير خاص للمحافظة على حياته من نقمة الجماهير . وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ كان للتدخل البريطاني المسلح في بور سعيد رد فعل مباشر عنيف في البحرين تجسد فوراً في المظاهرات الصاخبة وعرقلة الاعمال ، الامر الذي اضطر الانجليز الى الاسراع في ارسال نجدات عسكرية بطريق الجو . وقد اعتقل كثيرون من قادة حركة

المظاهرات ، كما فرضت الرقابة المشددة على الصحف : وتحوّل نظام الحكم الى نظام بوليسي.وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٧ تجددت المظاهرات الصاخبة في مدن البحرين على اثر صدور الاحكام على عدد من القادة القوميين . ان هذا الجو السياسي القلق في البحرين يبرز المخاوف التي يبديها عادة اولو الامر في دول الخليج تجاه التطور والتقدم .

obeikandl.com

١٥

الكويت الأسطورية

الكويت هي اشهر امارات الخليج العربي ، على الاطلاق : وثروتها البترولية الهائلة ، وتطورها البالغ السرعة يجعلان من العسير ، ان لم يكن من المستحيل ، التحدث عنها دون استعمال الفاظ التفضيل والمبالغة : لقد غمرت الثروة الكويت كالوباء . ولم ينج شخص تقريباً من غنغرينا الذهب . والاساطير العربية المذهلة تبدو هزيلة باهتة ، ومغامرات علاء الدين عقيمة صغيرة امام « المعجزة » الكويتية . وقد جمع اميرها ، المهراجا الحديث ، عام ١٩٥٦ بالدولار والسترليني ما يوازي اربعمائة [illegible] يومياً ، وانتاج البترول ينتظر ان يزيد ثلاثة اضعاف في السنوات الخمس القادمة : ان مساحة الكويت اصغر بمئة مرة ، من مساحة العربية السعودية ومع ذلك تنافسها على المركز الاول في احتياطي بترول العالم . وهي صحراء مستوية دون ماء عذب ولا زراعة ، تشبه اسفنجة مشبعة بالبترول . ويروى عن بترول الكويت هذه الظرفة النادرة التي شاعت في انحاء المعمور :

في عام ١٩٥١ توجه مبعوثو أمير الكويت الى الولايات المتحدة الاميركية ، لشراء تجهيزات خاصة لتكرير مياه البحر . وقد شده الاميركيون آنذاك اذ كيف يمكن ان يعيش بشر في بلد محروم من المياه العذبة ، فنصحوهم قائلين :

– ولكن ، افعلوا شيئاً ما ، احفروا آباراً ؟

فأجاب المبعوثون الكويتيون مكرهين : ان هذا أمر مستحيل ، وما ان نحفر في الأرض بحثاً عن الماء ، حتى نعثر على البترول .

قد تكون هذه الرواية صحيحة او مختلقة ، ومهما يكن فهي توجز حكاية الكويت وطن الذهب الاسود الاسطوري ، الذي لم يعد يعيش الا بالبترول ومن أجل البترول . وحول مرفأ طبيعي صغير على الخليج الهادىء الازرق ، تحول البحارة اليائسون ، وصيادو السمك، في ظرف عشر سنوات الى تجار ، ومقاولي بناء ، ورجال أعمال . وأصحاب الكفايات المحدودة منهم يعملون لحساب الشركة البترولية أو الشركات الخاصة ، بأجور خيالية . ومدينة الكويت العاصمة القديمة هدمت كلها تقريباً وأقيم مكانها مدينة حديثة بأبنية بيضاء فخمة ، وشوارع عريضة مستقيمة . وعلى الشوارع العريضة الجميلة ، المزفتة ، التي حلّت محل طرقات القوافل القديمة ، تسير متهادية سيارات البويك والكاديلاك التي أرغمت الكويتي على ان ينسى الجمل . والماء العذب، هذا السائل النادر الثمين ، الذي كان يستورد من العراق ، يسيل الآن من الحنفيات المنكّلة في بيوت مكيفة بالهواء . واللافتات الضوئية التي تفترس الليل بأنيابها المختلفة الألوان تذكر بمحطة سان لازار او بيكاديللي اكثر مما تذكر بسوق شرقي .

لقد جعلت الظروف الاستثنائية ، الكويت أكثر بلدان الشرق تقدماً. وفيه تحدث تجربة اجتماعية خيالية يعيش فيها الانسان خلال بضع سنوات عصوراً طويلة من التطور .

بحّارة وبناة مراكب

يتجمّع سكان الكويت بصورة خاصة ، على الشاطىء ، حول الجون الجميل . وتضم مدينة الكويت حوالي مئة وعشرين الف نسمة ، على الساحل الجنوبي من الجون . وهناك ثمانون الى مئة الف آخرين موزعون في عدد من القرى والمراكز البترولية . والى الجنوب من الجون الطبيعي أنشىء ميناء الأحمدي ، المرفأ البترولي . ومركز الكويت ، في الزاوية الغربية من الخليج جعلها الباب الطبيعي لبلاد ما بين النهرين ، ولشمالي الجزيرة العربية . ومنذ مدة أعلن العراق رغبته في إنشاء ميناء بترولي ، ولكنه اصطدم بمعارضة وحذر أمير الكويت ، نظراً للاطماع التوسعية القديمة التي دغدغت مخيلة حكام العراق . وحدود الكويت معينة بموجب بروتوكول العقير . وهي تفصلها عن جارتيها الكبيرتين العراق والعربية السعودية ، وبسبب ذلك تركت مساحة مستوية صحراوية يرتحل فيها حوالي عشرة الى عشرين الف بدوي محايدة بين الدول الثلاث . وهذه البقعة المحايدة مقسمة الى منطقتين الاولى الى الجنوب من الكويت ، والثانية في الداخل من الوراء . المنطقة المحايدة الجنوبية للخليج بين الامارة والاحساء تخضع للسيادة المشتركة السعودية والكويتية . وقد سبق لي وأشرت الى الدافع المصلحي الوحيد في هذه المنطقة ، الا وهو الاستثمار البترولي . وحقوق الكويت في المنطقة ، مُنحت للمؤسسة البترولية الاميركية المسماة (امينويل) التي تضم عشر شركات بترولية اميركية « مستقلة » ، تعمل في تعاون مع شركة جيتي للبترول ، صاحبة الامتياز الممنوح من الجانب السعودي .

والكويتيون الاصليون كلهم عرب ومسلمون سنيون . وهناك الف ايراني يقيمون في العاصمة الكويتية منذ القرن الثامن عشر . ولم تتعرض

الامارة الى أشكال النفوذ الاجنبي الظاهرة في «الدول المحمية» الأخرى من الخليج . والمركز الجغرافي الفريد للجون الطبيعي ، على شاطىء الخليج كان الحافز الى تأسيس الدولة- المدينة التي حملت اسم الكويت. كما كان لمدة طويلة العامل الذي يقرر لون النشاط الذي تزاوله أكثرية السكان ، بين بحارة ، وغطاسي لؤلؤ وبناة مراكب فريدة من نوعها . ومنذ بدء عهد البترول وهذه المهن القديمة تتلاشى ، والسكان الاصليون يختلطون بالمهاجرين العرب الذين جاؤوا من مناطق الخليج الأخرى او من البلاد العربية الاخرى كالعراق وسورية ولبنان وفلسطين ، لا سيما بطبقة المثقفين العرب .

في الماضي كان الكويتيون يميلون بصورة خاصة الى مهن البحر . وهم مشهورون بالشجاعة والمهارة في صنع المراكب البحرية . بسبب ذلك تخصص هؤلاء الغطاسون وراء اللؤلؤ والصيادون الذين يعملون في في مواسم معينة ، منذ وقت طويل بشؤون التجارة البحرية بين الخليج العربي وبلدان المحيط الهندي في آسية وافريقية . وكانوا يحملون في الذهاب تمور البصرة السكرية ويعودون ، في الاياب بأحمال الاخشاب التي كانوا يستخدمونها في بناء مراكبهم السريعة التي تبلغ حمولتها مئات الاطنان . وهذه المراكب المشهورة من بومباي الى زنجبار ، في المحيط الهندي كله ، وحتى في البحر الأحمر ، هي مجال افتخار الكويتي . وعندما رغب الأمير السابق ان يكون له يخت فضّل ان يجري بناؤه في الورش المحلية دون الخارج . وما زال استيراد خشب الملابار مستمراً ، غير ان صناعة بناء المراكب ، كصناعة اللؤلؤ ، هي في تقهقر مستمر .

وليس في الكويت المحرومة من المياه ، عملياً ، اية زراعة ، جميع المواد الغذائية يجب ان تستورد من الخارج . أما المياه العذبة ، فيكررها من مياه البحر ، مصنعان يعملان ليلاً نهاراً . في السابق كان الماء العذب

يستورد في مراكب من شط العرب في العراق،على مسافة ثمانين كيلومتراً من الكويت . ومن خزانات خشبية محملة على عربات ، كان الماء يباع على الابواب في قرب من الجلد . وجر الماء من شط العرب بدأ منذ بدأت موجة الازدهار الغريبة التي أصابت الأمارة . وهذا المشروع في حال انجازه يوفر امكانية تطوير زراعي محدود . ولكن هنا لا بد من ان نتساءل : من يريد ان يكون فلاحاً في بلاد اصحاب الملايين هذه ؟

منذ الآن ، تواجه الشركة البترولية صعوبة كبرى في المحافظة على الجهاز العامل الذي تكونه من الوطنيين ، اذ ان من السهولة في الكويت جمع ثروة ، الامر الذي يجعل الافراد الاكفاء يفضلون تجربة حظهم في العمل الحر . وهذه المشكلة لا تقتصر على الكويت وحدها ، بل تشمل جميع المناطق البترولية في الخليج .

شركة بترول الكويت

منح الامتياز البترولي الذي يشمل الاراضي الكويتية كلها عام ١٩٣٤ ومدته خمس وسبعون سنة لشركة بترول الكويت . والاتفاق الجديد من اجل اقتسام الارباح الموقع عام ١٩٥١ ، يجعل مدة الامتياز خمساً وسبعين سنة ابتداء من كانون الاول سنة ١٩٥١ ، وشركة بترول الكويت المسجلة في كندا احتراماً للنفوذ البريطاني ، تتألف مناصفة من شركة دارسي الكويتية للبترول احدى توابع شركة البترول البريطانية ومن شركة بترول خليج الكويت ، احدى توابع الشركة الاميركية الكبرى ، شركة «الغولف» أي الخليج . ومبدئياً ، ومع ذلك تستعيد كل من الشركتين حريتها في العمل بمجرد خروج البترول الخام من حدود الامارة .

بعد سلسلة من اعمال التنقيب غير المجدية ، عثر على أول جيب

بترولي عام ١٩٣٨ ، ومنذ اللحظة الاولى بدأ الحوض يعطي بترولاً هو من حيث التركيب أفضل ما في العالم . ما من بئر في الكويت يتجاوز عمقه الف وخمسمائة متر . وظروف الاستخراج ، على العموم ، تمتاز بأنها غير مكلفة . وقرب الحقل البترولي من البحر ، الذي يتيح ايصال البترول الخام الى الشاطىء بدون ضخ ، هو ميزة اخرى اضافية . وعلى الرغم من كل ذلك لم يبدأ الانتاج التجاري إلا سنة ١٩٤٦ بسبب الحرب العالمية الثانية ، وقد وصل بسرعة الى ارقام قياسية . وامكانيات الكويت الهائلة في هذا الحقل وضعت موضع التجربة خلال الازمة الانجليزية ـ الايرانية ، وتوقف الشركة الانجليزية ـ الايرانية احدى توابع شركة البترول البريطانية ، عن الانتاج في ايران ، على الضفة الاخرى من الخليج .

التقدم الخيالي

في حزيران سنة ١٩٤٦ ، خرجت أول شحنة من بترول الكويت الخام في طريقها الى اوروبا . والثمانمائة الف طن المستخرجة في تلك السنة عادت على الامير بمبلغ ثمانمائة الف دولار . وفي سنة ١٩٥٠ بلغ الانتاج سبعة عشر مليوناً وثلاثماية الف طن وارتفعت العائدات الى اثني عشر مليوناً واربعمائة الف دولار . ثم جاء عام ١٩٥١ الاتفاق الجديد الذي يقضي بتقاسم ارباح البترول مناصفة بين الامارة والشركة . وفي سنة ١٩٥٦ ، على الرغم من هبوط الانتاج الذي سببته أزمة السويس، وصل الرقم الى خمسة وخمسين مليون طن ، وقد عادت هذه الكمية على الامير بمبلغ ثلاثمائة مليون دولار ، يضاف اليها ايجار وعائدات المنطقة المحايدة . وفي السنين المقبلة تسعى الشركة لمضاعفة الانتاج حتى يصل عام ١٩٦٢ الى مئة وثمانين مليون طن ، أي ما يوازي انتاج الشرق الاوسط لعام

١٩٥٦ بأسره . والانقلابات الجذرية العامة في الكويت تقوم على أساس هـذه الارقام : من ٨٠٠،٠٠٠ طن الى ٥٥،٠٠٠،٠٠٠ طن ارتفع الانتاج في عشر سنوات كما ارتفعت العائدات في نفس الحقبـة . من ٨٠٠٠،٠٠٠ الى ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار . وينتظر ان تضرب هذه الارقام بثلاثة علي الاقل في السنوات الخمس المقبلة .

ويبين الجـدول التالي بالارقام القفزات الجبارة التي سجلها الانتاج البترولي في الكويت منذ عام ١٩٤٦ :

١٩٤٦	٨٠٠،٠٠٠	طن
١٩٤٧	٢،٢٠٠،٠٠٠	»
١٩٤٨	٦،٣٠٠،٠٠٠	»
١٩٤٩	١٢،٤٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٠	١٧،٣٠٠،٠٠٠	»
١٩٥١	٢٨،٢٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٢	٣٧،٦٥٠،٠٠٠	»
١٩٥٣	٤٣،٣٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٤	٤٧،٧٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٥	٥٤،٧٥٠،٠٠٠	»
١٩٥٦	٥٥،٠٠٠،٠٠٠	»
١٩٥٧	٥٧،٣٠٠،٠٠٠	»

هذا ويجب التذكير انه لا يمكن اعتبار سنتي ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ سنتين عـاديتين ، بسبب التدخل المسلح في بور سعيد . والكويت ، كسائر امارات الخليج ، واجهت بعض العراقيل . وتعذر وصول ناقلات البترول المفاجيء ، بصورة خاصة ، هو الذي جعل الانتاج في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ يهبط الى النصف . ولم يعـد المعدل الشهري الى مستواه الوسطي إلا ابتداء من شهر حزيران سنة ١٩٥٧

قدر احتياطي البترول في الكويت في سنة ١٩٥٣ بثمانية عشر مليار ومائتين مليون برميل ، ١٥٪ من احتياطي العالم غير الشيوعي . وفي عام ١٩٥٥ قُدّر هذا الاحتياطي بخمسة وعشرين مليار برميل . والحقول الجديدة المكتشفة حديثاً في الشمال ، التي لم يجر تقدير غناها بعد ، تضيف على هذا الرقم عدداً محترماً من ملايين البراميل .

ويقع الحقل الرئيسي على مسافة تناهز أربعين كيلومتراً الى الجنوب من مدينة الكويت ، وفيه تستثمر اليوم آبار برقان ومقوع . ومنذ سنة ١٩٥٦ حصلت الشركة على نتائج مشجعة بحفرها آباراً تجريبية في منطقة نائية في الشمال . وتوجد المنطقة البترولية الجديدة ، مقابل المنطقة الاولى بين الجون والحدود العراقية . وبعد النتائج المشجعة التي أحرزت في الردهتين ، انتقل عمال الحفر الى « صبرية » الواقعة جنوب النقطة الاولى ، ثم الى بحرة في الجنوب الشرقي ، وأخيراً الى مطربه في الشمال الغربي . وشكلوا بعشرات الآبار التي حفروها نوعاً من الدائرة ، قصد منها تحديد الحقل الجديد . وفي نهاية سنة ١٩٥٨ وعام ١٩٥٩ أعطى هذا الحقلُ الجديد عدة ملايين من الاطنان الاضافية . وينتظر ان تربط هذه المنطقة بخط أنابيب مع الشاطىء .

وتقوم مراكز التخزين والمكاتب الادارية للشركة في الاحمدي ، على مسافة بضعة كيلومترات من حقول الانتاج في برقان ومقوع . ويضخ البترول الخام حتى خزانات الاحمدي ، حيث يمكن ايصاله بسهولة فائقة الى ميناء الاحمدي البترولي احدث الموانىء البترولية في العالم . وهنا ايضاً تقوم مصفاة تكرير تعمل لسد الحاجات المحلية وتزويد الناقلات العاملة في الخليج بما يلزمها من وقود . وطاقتها السابقة التي كانت في حدود مليون وخمسمائة الف طن ، رفعت عام ١٩٥٨ الى ثمانية ملايين وخمسمائة الف طن . وتجهيزات التعبئة الموجودة في ميناء الاحمدي هي أحدث تجهيزات من نوعها وتستطيع ان تعبىء في بضع ساعات أكبر

ناقلات البترول العاملة اليوم في العالم : مع العلم بأن الجهاز الآلي قد خفض الى بضعة رجال من العمال اللازمين لتأمين هذه العمليات المستمرة ليلاً نهاراً ؛ ويستطيع ميناء الأحمدي ان يعبىء أكثر من مليون برميل من البترول الخام في اليوم ، أي ما يمثل الى حد بعيد الرقم القياسي في العالم في التعبئة الخام . وفي عام ١٩٥٤ عبأ ميناء الكويت البترولي وصدّر أكثر من خمسة وأربعين مليون طن من البترول الخام على متن الفين وأربعمائة وسبع وتسعين ناقلة ، بمعدل سبعين ناقلة في اليوم . وعلى الرغم من تطوير وتحسين الموانىء والمصافي البترولية المجاورة ، ما زال ميناء الأحمدي في الطليعة من حيث الأهمية .

وتستخدم شركة بترول الكويت ، مباشرة ، مع وجود الوسائل الآلية في مشروعاتها اكثر من ثمانية آلاف شخص ، بينهم ألف من الأوروبيين والأميركيين . واستخراج البترول يفتح أبواب العمل والربح أيضاً أمام قسم كبير من السكان . والنشاط المتزايد في مجال البناء والأشغال العامة ، والتوسع التجاري الذي تبع ازدياد الطلب في كل الحقول ، هما وراء اثراء متفاوت الدرجات . والكويت بالاضافة الى ذلك تعتبر مركزاً للتخزين . وتجارة العبور تنقل بواسطة المواد والمنتوجات الصادرة عن داخل الجزيرة العربية او الواردة اليها . وحركة الاستيراد والتصدير هي حركة تجارة خارجية متزايدة النشاط باستمرار . وفضلاً عن البترول تصدر الكويت الصوف والجلود واللؤلؤ . كما تبيع المراكب الى جاراتها امارات الخليج الاخرى . وتشمل الواردات المواد الغذائية بمختلف انواعها ، والأدوات والتجهيزات المصنوعة : اي ان الكويت الغنية تستبدل بذهبها الأسود مختلف انواع المنتوجات ؛ ومنذ عدة سنوات ، وحجم الواردات في تضخم مستمر ، وتقتسم الولايات المتحدة الاميركية مع بريطانيا القسم الأكبر من هذه المبيعات المختلفة .

الدولة المثال

لقد ساعدت الاتفاقات البترولية الجديدة على مضاعفة السرعة في التطورات المذهلة التي تحصل في الكويت ، في الوقت الذي يقفز الانتاج فيه قفزاً عدة ملايين طن كل عام . وابتداء من سنة ١٩٥٣ كان على عائدات الامارة ان تصل الى نصف الأرباح التي حققتها الشركة ؛ ونتيجة لهذه الاتفاقات الجديدة عام ١٩٥١ نشأت ضريبة « بترولية » تحسب قبل حسم ضريبة الدخل المدفوعة في بلد المنشأ ، بطريقة تتيح للكويت ان تستأثر بنصف الأرباح العامة . انه النظام الذي اطلق عليه بسماجة التعبير الأميركي « فيفتي – فيفتي » (نصف – بنصف) ؛ وهذه الاتفاقات قابلة لاعادة النظر فيها ، فيما لو حصلت البلدان الرئيسية الأخرى المنتجة للبترول على شروط افضل .

وتستخدم هذه العائدات الطائلة التي يتلقاها الأمير ، بتعقل . والشيخ عبد الله السالم الصباح كحاكم فرد واع ، قرر ان يجعل من امارته مثالا للدولة الحديثة . لذلك وظف قسماً من العائدات البترولية في أسواق المال بقيم ثابتة متوسطة وطويلة المدى وتشرف على ذلك ادارة انشئت خصيصاً لهذه الغاية . وهذا العمل يحول الى مورد جديد عائدات البترول المستخرج من آبار قد تجف غداً . وبعد تخصيص قسم من العائدات لأفراد اسرة الأمير ، والهيئات التقليدية ، وتفقات الادارة ينفق القسم الأكبر من العائدات في مشروعات ضخمة ؛ وأصدق مثل على هذه المنجزات التي تحدث انقلابات في مستوى معيشة الكويتيين ، هو مصانع تكرير مياه البحر التي كلفت عشرات الملايين . وبعد ما أصبح الأمير في حل من التبعية للعراق من أجل ماء الشفة ، قبل ان تجر مياه شط العرب الى الامارة في قناة طولها مئة كيلومتر . لقد وفق الأمير ولكن بتكاليف

باهظة الى ان يجعل عاصمته أحدث عاصمةفي العالم ، بعد ان امر ببنائها من جديد وزوّدها بشوارع وطرقات وميناء ومطار ، ومستشفيات ومدارس وشبكات لتوزيع المياه العذبة والغاز والكهرباء ، ومجارير ، وتكييف هواء وبهذه الوسائل كلها حوّل المدينةالصغيرة القديمة الفقيرة القائمة على الرمال الى جنة في منطقة الخليج .

وقد بذل الشيخ جهداً خاصاً لتمويل مشروعات الخدمات الصحية والتربوية . والامارة التي لم يكن فيها سوى مستشفى حقير قبل عهد البترول ، اصبحت مضرب المثل في التقدم الصحي ، ومقصد سكان البلدان المجاورة يأتونها للاستشفاء . وفيها اليوم خمس مستشفيات مجهزة بأحدث الآلات انشئت مؤخراً وهي تعمل باشراف جهاز ضخم من الأطباء والممرضين جيء بهم من البلدان العربية المجاورة . وفي الوقت نفسه أحدث خمسة وعشرون مستوصفاً توزع عنايتها المجانية ، في مختلف انحاء الامارة كما ان شركة بترول الكويت تملك أجهزتها الصحية الخاصة من مستشفيات ومستوصفات .

والتعليم الذي انتشر كثيراً ، هو الآخر مجاني تماماً كالخدمات الصحية. انهما مظهران مميزان في هذه الدولة المثال ، وقليلة هي الدول التي تفوز بمثلها . في الكويت يلبس التلامذة ويأكلون ويعتنى بهم مجاناً خلال كل مدة الدراسة . وفي أقل من عشر سنوات ، استطاعت الامارة ان تجعل التعليم في متناول ٩٥ ٪ من أبنائها الذين هم في سن الدراسة . وأنشأت لذلك خمساً وخمسين مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والتكنيكي يدرس فيها اكثر من ألف مدرس . وهناك عشرون الف تلميذ من بنين وبنات ؛ كما تدل الاحصاءات الرسمية لعام ١٩٥٧ . وعلاوة على ذلك تابع مئات الشبان الكويتيين دراساتهم العالية في الخارج ، على حساب الدولة ، في مصر وبريطانيا . وهناك ايضاً منح للدراسات التكنيكية توزعها الشركة التي لها مراكزها الخاصة بها للتعليم التكنيكي والاعداد المهني .

ظلال في اللوحة

ان هذا التقدم الملحوظ في الكويت يحمل معـه بذور الانقلابات الجذرية التي ستحصل في المستقبل . لقد اضطرت الكويت كبلد صغير يعيش في ظروف اجتماعية واقتصادية غير متكافئـة ان تلجأ في كل الميادين الى فنيين واختصاصيين غرباء . وجهاز التعليم مثلاً يضم نسبة كبرى من المصريين والفلسطينيين . وهؤلاء يشكلون « دعـاة » للقومية العربيـة في الكويت . وعندما يكون اعداد الأجيال القادمة في بلد ما ، في عهدة اشخاص ثوريين في تفكيرهم ، فقل عندئذ على الأنظمة القديمة القائمة السلام . والشبيبة الكويتية التي اعتنقت الفكرة الحديثـة للقومية العربية ، تنظر باحتقار لتلك الحدود التي تحيط بهذا المربع الرملي الذي يحكمه الشيخ العجوز ، وهي لا ترى في الاديولوجية القومية اية اطماع . وهذا الخطب الفاضح المقبل بالنسبة للعرب من العسير جداً تلافيه : ومهما يكن فان الحكم الاستبدادي المتفتح ، في الكويت ، هو في المستقبل في طريق الزوال ، ولكننا ما زلنا نجهل كيفية زواله . في عام ١٩٥٧ صرح رجل أتاحت له أعماله ان يعرف أوضاع الكويت عن كثب ، ان الكويت ستثور بعد عشر سنوات . ويمكن ان تكون الفترة اللازمة للثورة أقصر مما قدرها ، هذا الرجل المطلع ، ولكن السؤال الرئيسي الذي يخامر الأذهان ، قبل كل شيء يستهدف معرفة الجهة التي ستندلع ضدها هذه الثورة .

ان الكويتيين مشغولون دائماً بالاعمال وجمع المال ، لذلك لم يعيروا كبير اهتمام مغريات القومية العربية . والرأسماليون الكويتيون الذين وظفوا رأسمالهم في البلاد العربية اتخذوا مبدأ عاماً لهم كالألمان « الاعمال قبل السياسة » . ولكن العمال والمثقفين ، وصغـار البورجوازيين اصبحوا

اكثر تحسساً بالدعاوة ضد بريطانيا ، التي يقودها احمد سعيد بمهارة من راديو صوت العرب في القاهرة : ان رباط التبعية الذي يربط الكويت ببريطانيا لا يختلف عن الروابط المماثلة في سائر انحاء الخليج . وهذا الامر ؛ يغذّي الحركة القومية ، ويزوّد الدعاوة العربية بما تحتاجه من مستندات لمهاجمة بريطانيا والاستعمار . وقد كان من بين النتائج الوخيمة للعدوان على بور سعيد ، تخريب بعض المنشآت في شركة البترول في الكويت. ان الامير يفضل ان يبقى مستقلا عن العراق والعربية السعودية وسائر البلدان العربية الاخرى. واليوم كما كان الامس ، هو في امس الحاجة الى الحماية البريطانية. ولكن هذه الحماية تحمل بذور ضعفها معها:

الحماية البريطانية

ولدت مدينة الكويت في القرن الثامن عشر ، وقد بنتها قبيلة «عتيبة» القبيلة البدوية التي جاءت من داخل الجزيرة وقد استهواها موقع الجون الممتاز وفي عام ١٧٩٣ ، فتح التجار الانجليز مستودعاً لبضائعهم فيها ، وفي عام ١٨٢١ ، اقام ضابط سياسي بريطاني في جزيرة فيلقـــه مقابل الجون :

وفي سنة ١٨٢٩ دخلت الكويت في نطاق الامبراطورية العثمانية لتصبح ، امارة مستقلة بموجب اعتراف من الباب العالي عام ١٨٨٨ ، ومن بريطانيا نفسها عام ١٩١٤ . واسرة الصباح التي تحكم الكويت نجدية الأصل ، وقد جاءت هذه المنطقة سنة ١٧٥٦ :

وعلى الرغم من ازدياد النفوذ البريطاني في اواخر القرن التاسع عشر ، حاولت تركيا ان تحتل الامارة عام ١٨٩٨ ، وخوفاً من مطامع السلطان العثماني ، عقد امير الكويت مع بريطانيا معاهدة الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٨٩٩ ، التي تشبه الى حد بعيد المعاهدة المعقودة ، سنة

١٨٩٢ بين بريطانيا والبحرين : وتنص هذه المعاهدة بالنسبة للموقعين عليها على نفس البنود التي وردت في المعاهدات الاخرى المعقودة مع سائر امارات الخليج : وبموجبها تعهدت الكويت بعدم اقامة اية علاقات مع اية دولة اجنبية ، وبعدم التصرف عن اية طريقة كانت بأي قسم من اراضيهـــا دون موافقة الحكومة البريطانية . وفي عام ١٩٠٤ عينت بريطانيا أول مندوب سياسي لها في الكويت .

وفي الرسائل المتبادلة عام ١٩١١ و١٩١٤ ، تعهد الامير ، من ناحية اخرى بعدم منح اي امتياز بترولي أو لؤلؤي قبل الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على ذلك . وقد تحدّد مركز المملكة المتحدة بالنسبة للأمارة في المذكرة المتبادلة في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، حيث وعدت الحكومة البريطانية بتقديم كل مساعدة للأمير واعترفت باستقلال الامارة في ظل الحماية البريطانية .

ويجب الاعتراف ان هذه الحماية هي التي ابقت الامارة مستقلة ، على الرغم من الغارات والهجمات والضغط الشديد من قبل العراق والسعودية سنة ١٩١٩ و١٩٢٢ و١٩٢٨ .

وقد عُينَت حدودها بفضل الجهود البريطانية التي بذلها مندوبوها في مؤتمر العقير بين كانون الاول ١٩٢٢ وكانون الثاني سنة ١٩٢٣، وكان عبد العزيز سعود لا يزال في ذلك الوقت مرتبطاً بمعاهدة سنة ١٩١٥ ، والنفوذ البريطاني على اشده في الرياض عن طريق جون فيلبي . وفي ذلك الحين كان العراق وشرقي الاردن خاضعين للأنتداب البريطـــاني والسلطة فيهما لم تكن في ايدي حكامهما العرب ، وكانت الادارة المدنية الهندية ، والخارجية البريطانية تتنافسان في حماية مصالحها الخاصة.وبالنسبة للكويت بقي الاستقلال الداخلي محافظاً عليه ، وعهد بشؤون الخـــارجية والدفاعية الى بريطانيا الدولة الحامية .

الكويت واقتصاد المملكة المتحدة

تسلم الامير الحالي الشيخ عبد الله السالم الصباح الحكم بعد ابن عمه احمد الجابر الصباح ، عام ١٩٥٠ . وفي عام ١٩٥٤ ، عند عودته من اوروبا حيث زار لندن وباريس وروما ، كاد الشيخ عبد الله السالم ان يذهب ضحية انقـــلاب اعده احد اقاربه الشيخ عبد الله المبارك مدير الشرطة. اذ ان هذا الاخير بسبب ميله الى التطور كان قد قرّر ان يستولي على السلطة . واستجابةً لذلك انطلق الأمير الحاكم في طريق العمل دون ابطاء ، ولم يترك سبباً للمعارضة واستتب له الأمر من جديد بعد اجراء مصالحة عامة . والنتيجة الرئيسية لهذه الحادثة العارضة كانت مضاعفة نفوذ عبد الله المبارك في الامارة . وذلك لأن الامر على الرغم من النظام الفردي يستعين مبدئياً بمجلس استشاري لأدارة الامارة يتألف من ابناء العائلة الحاكمة ، الذين يتولون مسؤولية الدوائر الوزارية المختلفة وفي هذه الحكومة الارستقراطية يعلو صوت مدير الشرطة العـــام ويبدو هو المسيطر .

ان نظام الحكم في الكويت نظرياً ملكي دستوري وقد سبق للأمير ان أنشأ في حزيران سنة ١٩٣٨ مجلساً تشريعياً استشارياً . ولما اعلن بعض اعضائه ميلهم الى الانضمام الى العراق ، اسرع الامير الى حله قبل ان يفلت الزمام من يده . والمحاولة الثانية التي جرت سنة ١٩٣٩ أدّت الى النتيجة ذاتها فحل المجلس ، والقي بالزعماء المحرضين في السجن بينما انفجرت في انحاء الامارة اضطرابات دامية . عندئذ سن الامام دستوراً جديداً يقول بوجوب تشكيـــل مجلس تشريعي آخر من عشرين عضواً ينتخب نصفهم والنصف الآخر يتم انتقاؤه بطريقة التعيين ولكن هذا الدستور لم ينفذ مطلقاً .

كان يوجد في الامارة ، فيما مضى ، تيار قوي من اجل الانضمام الى العراق وكان يوجهه جماعات من الطلاب الذين تلقوا علومهم في المدارس العراقية. والمعارضة الشديدة لحكم الامير الفردي ، كانت تدار من الاراضي العراقية على يد جمعية عرب الخليج التي تأسست في البصرة في كانون الثاني سنة ١٩٣٩ .

لقد كانت مطالب المعارضة تنحصر في نطاقي الاجتماع والاقتصاد ، وكان من مصلحة الكويت الفقيرة آنذاك ان تتحد مع العراق : وقبيل الحرب العالمية الثانية كانت الامارة ممزقة بين تيارين متناقضين هما انصار الامير الحريصون على استقلال امارتهم ، وانصار المعارضة المطالبون بالانضمام الى العراق .

اثر ذلك ، بدأ عهد البترول الذي حول الكويت الى بلد الاساطير والثروات والسحر ، ونتيجة لهذا التطوير اصبح الطلاب رجال أعمال في وطن منظم يعطي اصدق مثال للازدهار المنقطع النظير . وليس هناك ما يشير الى ان هذا التقدم الشامل السريع في حقل الاجتماع والبحبوحة والثروة التي اصابت الجميع تقريباً اقتصاد ثوري عنيف .

ان المشكلات السياسية في الوقت الحاضر ليست اساسية ومستعجلة ولكنها قد تصبح كذلك بسرعة . واهم العوامل الرئيسية لذلك هو هذا العداء الذي تتزايد حدته عند العرب ضد بريطانيا :

وبالنسبة لهذا البلد الاخير يعتبر الابقاء على نفوذه في الكويت اكثر الامور اهمية ، ويظهر ذلك جلياً في سياسته الشرقية. ان الامارة الصغيرة تزود المملكة المتحدة بنصف حاجتها من البترول . وهذا السائل الحيوي، يدفع ثمنه بالجنيهات الاسترلينية في الكويت ، الامر الذي يوفر على الخزينة البريطانية مبالغ طائلة من النقد النادر . وعلاوة على هذا الوفر ، تزود الكويت خزينة بريطانيا بمبالغ طائلة من النقد النادر . وارباح الامير المحولة الى نقد نادر تودع في مصارف لندن ، وما من احد في سوق

لندن يجهل ان مجلس التوظيف الكويتي هو افضل مشتر فردي . والاعمال الكبرى التي تنفذ في الامارة ، تشترك فيها عدة شركات اجنبية، اكثرها بريطانية . وشركة البترول البريطانيـــة التي تملك نصف شركة بترول الكويت (لها صوت راجح فيها) تشرف عليها حكومة لندن من خلال الأسهم العائدة للامبراطورية البريطانية ، واهم مصالح هذه الشركة التي توزع نشاطها في شتى انحاء العالم متجمعة في الكويت ، وهذا الوضع لغريب الشاق يجعل اكبر الشركات البريطانية واحدى اكبر الشركات الاحتكارية في العالم تحت رحمة وضع سياسي قد يحمل الكثير من المفاجآت.

ولذلك نرى مديريي شركة البترول البريطانية بالغي الحذر ، شديدي التأثر بالسياسة البريطانيـــة في منطقة الخليج ، لأن الامتيازات البترولية الاخرى تخص شركة بترول العراق ، التي تملك شركة البترول البريطانية الرسمية ٢٣،٧٥٪ من اسهمها . وفي عام ١٩٥٦ بلغ انتـــاج الشركة البريطانية للبترول في العالم تسعة واربعين مليون طن، اكثر من نصفها — سبعة وعشرين مليون طن — جاءت من الكويت وحدها . ان الوجود البريطاني مهدد من الداخل والخارج علناً في كل منطقة الخليج . لذلك هو موضع بحث من جديد وقد بينت ان الخروج من هذه المنطقة غير وارد بالنسبة لبريطانيا . والمسؤولون عن السياسة البريطانية في هذه المنطقة يميلون اكثر فأكثر الى اجراء تعديل جذري عليها تجاوباً مع تطور الاحداث والزمن . ولكن مناهضي النفوذ البريطاني سواء كانوا مصريين أو سعوديين أو سوريانيين أو اميركيين يخطئون في الحساب بكل تأكيد واذا كانوا لا يضعون في حسابهم ، ما قد تلجأ اليه بريطانيا اذا ما تضايقت ومن يدري فقد تحارب بضراوة الوحش المفترس الجريح للابقاء على نفوذها ووجودها في الخليج الذي لا تستغني عن بتروله . ان الخليج بالنسبة لبريطانيا هو كالجزائر بالنسبة لفرنسا على الصعيد العملي الحياتي.

وفي الوقت نفسه اتصلت بعدد كبير من البريطانيين ذوي النظر الثاقب

المطلعين على شؤون بلدهم في الشرق الاوسط ، لمعرفة ما اذا كانوا مقتنعين مثلي باستحالة الاستمرار في تطبيق السياسة الاستعمارية القديمة، ان حدود المملكة المتحدة هي في الخليج العربي بين الكويت ومسقط، وحدود الامبراطورية لم تكن يوماً معرضة لأخطار مداهمة كهذه واذا ما استمرت بريطانيا في تطبيق الاساليب التي ادت الى قوتها في القرن التاسع عشر فانها تعرّض نفوذها للتلاشي في المنطقة ازاء القوى الجديدة التي لم تعد تملك قدرة السيطرة عليها .

obeikandl.com